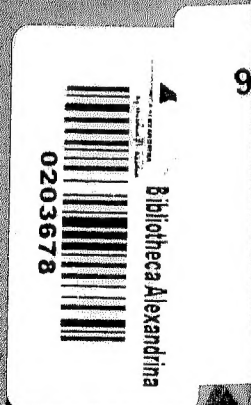




الدكتور
جمال الدين الشبال
أستاذ التاريخ الإسلامي

مكتبة الثقافة الدينية



مَجْلَد
تَارِيخِ مَمْلُوكَاتِ

الاسم:

أسرة د/ جمال الدين الشيال
الإسكندرية

مَجْلَدُ تَارِيخِ كُمِّيَّاتٍ

سياسيا واقتصاديا



General Organization of the Al-Qadisiya Library (GOAL)
المنظمة العامة لكتبة القادسية

تأليف

الدكتور جمال الدين الشيال
أستاذ التاريخ الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ ش بورسعيد - القاهرة
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس : ٥٩٢٦٢٧٧

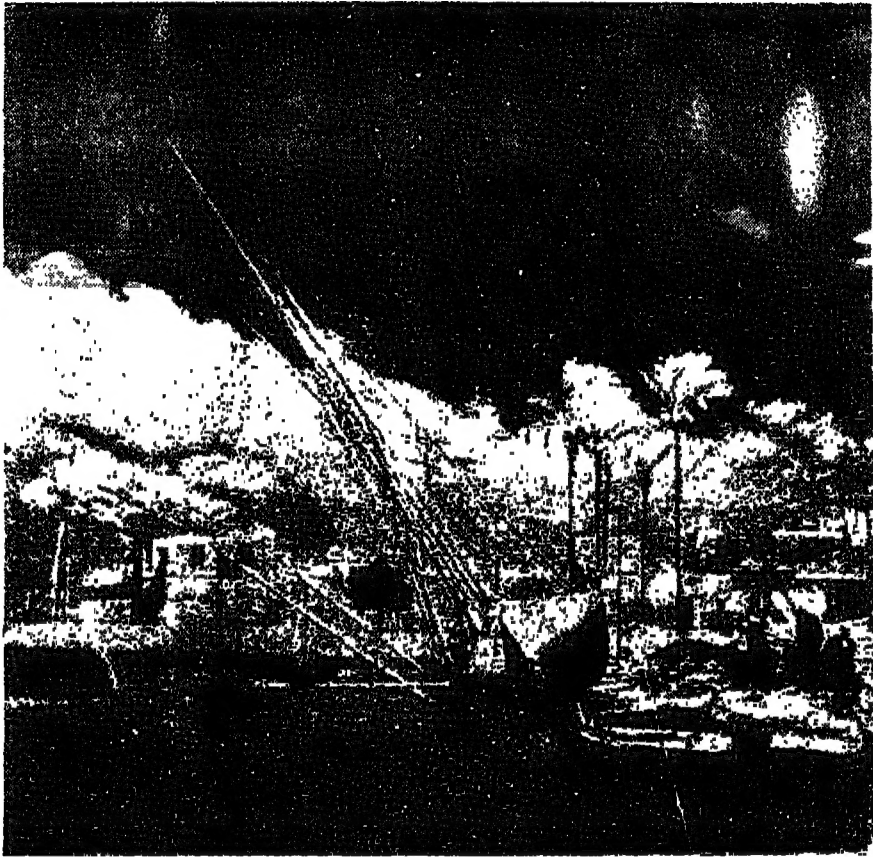
٣١١٥ ٥٠ ٢

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناسر
مكتبة الثقافة الدينية

كلمة المؤلف

دمياط وطني الأول، فيها ولدت، وبين ربوعها قضيت طفولتي الأولى، فلها في نفسي أجمل الذكريات.

وقد عانيت منذ نيف وعشر سنوات بكتابة تاريخ لها، فقرأت عنها الكثير، وجمعت أثناء قراءاتي مادة وفيرة، كنت أدخرها إلى أن يصفو الوقت، وأفرغ من مشاغلي، فأتوفر على كتابة هذا التاريخ، وكنت أطمع، بل أطمح أن أوفق لإخراج هذا التاريخ كاملاً مفصلاً، ولكن غرفة دمياط التجارية انتهزت فرصة قيام المعرض الزراعي الصناعي هذا العام وأرادت أن تقدم للناس مجمل يعرف الناس بهذه المدينة في عصورها المختلفة، وأحسن الغرفة في الظن فكلفتني بكتابة هذا المجمل في وقت كانت تغمرني فيه شواغل العمل والحياة، ولكنني استجبت لرغبتها الكريمة، وبها أنلت أقدم هذا المجمل، وغاية ما أرجو أن أوفق في القريب إن شاء الله لتقديم تاريخ للمدينة كبير، أفصل فيه ما أجمل، وأوضح فيه ما غمض، واستوفي فيه ما نقص، فإن لدمياط في نظري شواحي أخرى لازالت تحتاج للتأريخ، وأهمها تاريخ العائلي للمدينة.



ناحية من شاطئ دمياط

تاريخ المدينة السياسي

دمياط في العصور القديمة

دمياط مدينة عريقة في القدم ، ذكرت في التوراة باسم (كفتور) ، وعرفت في العصر اليوناني باسم (تامياتس Tamiatia) وفي العصر القبطي باسم (تاميات Tamiat) (أو تامياتي Tamiaty) — ويقال إن معنى هذا اللفظ في اللغة المصرية القديمة : — الأرض الشمالية أو الأرض التي تنبت الكتان — ، ومع هذا فنحن لانكاد نجد لها ذكراً في المراجع القديمة ، وإنما تبدأ معرفتنا بها بعد الفتح الإسلامي لمصر .

ولعل السر في نغوص تاريخها القديم أن فرع دمياط كان أقل فروع النيل السبعة القديمة أهمية ، وكان الفرع البلوزي الذي يصب في البحر عند مدينة بلوزيم — أو الفرما — أهم الفروع التي تمر بشرق الدلتا ، وأنه كان يجاور دمياط على شاطئ البحر الأبيض المتوسط مدينتان قديمتان ، لهما مالها من سمات ومميزات ، وهما : مدينة تنيس ، ومدينة الفرما أو (بلوزيم Pelusium) ، فكل منهما كانت تشرف على البحر الأبيض المتوسط : الفرما عند نهاية الفرع البلوزي ، وتنيس عند نهاية نهر صغير كان يخرج من فرع دمياط ، ويسمى الفرع التنيسي .

وكان موقع هاتين المدينتين ممتازاً من الناحيتين الحربية والتجارية ، بل لعلهما كانتا تفوقان دمياط القديمة في هاتين الناحيتين ، فتنيس كانت جزيرة في الطرف الشرقي من البحيرة التي كانت تحمل اسمها (بحيرة تنيس أو المنزلة الحالية) ، كما كانت هي والفرما تقعان في نهاية خط مستقيم تقريباً يمتد عبره طريق قوافل صحراوي يصل بينهما وبين ميناء البحر الأحمر الهامة : القلزم (أو السويس الحالية) ، فكانت تجارات الشرق التي تصل إلى القلزم تحمل منها عبر هذا الطريق إلى الفرما حيث تحملها سفن البحر الأبيض المتوسط إلى سواحل الشام وآسيا الصغرى واليونان ، وهاتان المدينتان — إلى هذا كله — أقرب إلى هذه السواحل من دمياط .

دمياط

في العصر العربي

الفتح العربي :

فاذا كان الفتح العربي (سنة ٥٢٠هـ - ٦٤٠هـ) فانا نجد هذه المدن الثلاث تقاوم مقاومة عنيفة ، فلا تخضع إلا بعد جهاد مرير ، ومعرفتنا بأخبار دمياط التفصيلية تبدأ بحوادث هذا الفتح ، فقد وجه الجيش العربي - بعد استيلائه على حصن بابلون - فرقاً منه بقيادة البطل العربي المقداد بن الأسود لإخضاع مدن الشاطئ الشرقي ، وتقول الرواية العربية إن المدينة وقت الفتح كان يحيط بها سور قوى ، وإن جندها بقى يقاوم مدة طويلة داخل هذا السور، فلما طال الحصار جمع (الهاموك) - حاكم المدينة - أصحابه وشاورهم في الأمر ، فنصحه سوادهم بالتسليم ، ولكنه خالفهم وظل يقاوم ، وكان له ابن يسمى شطا ، فخرج إلى المسلمين في الليل ، ودلهم على عورات البلد ، فلم يشعر الهاموك إلا والمسلمون يكبرون على سور المدينة ويدخلونها. ثم سار الجيش العربي إلى تنيس ، فلقى من حصانة موقعها - كمجزيرة تحيط بها المياه - ومن حاميها نصالاً أشد وأعنف ، وتعود الرواية العربية فتذكر أنه عندما اشتد النضال للاستيلاء على تنيس تقدم شطا لمساعدة العرب - ومعه ألفان من الجند - فأعلن إسلامه ، واشترك في قتال أهل تنيس فأبلى بلاء حسناً إلى أن استشهد في ليلة الجمعة النصف من شعبان سنة ٥٢١هـ (١٩ يوليو ٦٤٢) فقبر حيث هو الآن خارج دمياط .

وهذه الرواية العربية لا تتقف طويلاً أمام النقد التاريخي ، فان مدينة شطا - التي يقال إنها سميت باسم هذا القائد المدفون بها - كانت موجودة ومعروفة بهذا الاسم قبل الفتح ، كما أن حاكم دمياط في ذلك الوقت معروف أيضاً ، وقد ذكر المؤرخ حنا النقيوسي أنه كان

يسمى (حنا) لا (شطا) ولا (الهاموك) . غير أننا هذا لا نستطيع أن نتجاهل بعض الحقائق الثابتة المتصلة بهذا الحادث ، فالمؤرخون العرب يذكرون أن هذا البطل قد استشهد يوم الجمعة النصف من شعبان سنة ٢١ هـ ، وهذا التاريخ يقابل التاسع عشر من يوليو سنة ٦٤٢ م ، وهو العام الذى تم فيه فتح هذه المنطقة ، كما أن التقاويم تثبت أن هذا اليوم كان يوم جمعة حقا ، فإذا قرنا هاتين الحقيقتين بحقيقة ثالثة ، وهى وجود قبر خاص فى قرية شطا لا يزال قائما ، ولا يزال أهالى دمياط يحتفلون بذكرى صاحبه فى النصف من شعبان من كل سنة حتى اليوم ، استطعنا أن نصلى إلى حل معقول ، وهو أن قائدا رومانيا انضم إلى العرب فعلا أثناء حربهم لدمياط وتينيس ، وأنه استشهد فى هذا التاريخ ودفن فى هذا المكان ، أما اسمه الحقيقى فلسنا نعرفه ، ولكن هذا الاسم لم يكن شطا على كل حال ، وإذا كان كذلك فإنه لم يكن قطعا حاكما لدمياط أو ابنا لحاكمها .

دمياط فى عصر الامارة :

وخلصت مصر للعرب بعد إتمام فتحها ، وعين على دمياط وتينيس ولاية من المسلمين يحكمونها ، غير أن معظم أهلها ظلوا على دينهم المسيحى سنين طويلة بعد ذلك ، ولم تنس الدولة البيزنطية أنها قد فقدت — بخروجها من مصر — خير أملاكها ، فظلت قرى طويلة تغير على شواطئ مصر الشمالية بأساطيلها عساها تستطيع استردادها ، وكانت أولى هذه المحاولات فى عهد الوالى العربى الثانى على مصر — عبد الله بن سعد بن أبي السرح — ، ولكن أساطيل الروم هزمت فى موقعة ذات الصواري ، ولم تشم هذه الهزيمة عن عزمهم ، فظلوا يغيرون على سواحل مصر ، وإنما اتجهت غاراتهم بعد ذلك عن الاسكندرية إلى موانئ مصر الشرقية : الفرما وتينيس ودمياط ، مما دفع الخلافة الإسلامية وولاة مصر من العرب إلى العناية كل العناية بتحصين هذه الموانئ وتزويدها بالحاميات تقيم وترابط فيها داءا للدفاع عنها براً وبحراً .



وقد قام جند دمياط وحاميها في القرون الإسلامية الأولى بواجبهم خير قيام ، فردوا عن المدينة غزوات الروم المتتابة ، كما كانوا يسهمون في إخضاع الثورات الداخلية التي كان يقوم بها سكان الحوف الشرقى (أى الأراضى الواقعة شرق الدلتا) ، وكانت غالييتهم من الأقباط .

تعددت غارات الروم على دمياط في القرون الثلاثة الهجرية الأولى ، وقد أشار المؤرخون إلى بعضها ، وهى التى حدثت فى السنوات : ٩٠ (٧٠٩) و ١٢١ (٧٣٨) و ٢٣٨ (٨٥٣) و ٢٤٥ (٨٥٩) و ٢٤٧ (٨٦١) و ٣٥٧ (٩٦٨) . وكانت أخطر هذه الغارات وأهمها الغارة التى وفدت على دمياط فى سنة ٢٣٨ (٨٥٣) فى عهد ولاية عنيسة بن إسحاق على مصر .

فى تلك السنة وفد الروم إلى دمياط يحملهم أسطول كبير يزبد على ثلاثمائة سفينة ، واستطاعوا أن ينزلوا إلى المدينة ويستولوا عليها ، فقتلوا عدداً كبيراً من سكانها وسبوا النساء ، وساعدهم على هذا كله خلو المدينة وقتذاك من حاميتها وجندها ، فقد انتهبوا إلى مصر — عنيسة بن إسحاق — فرصة عيد الأضحى من تلك السنة ، وأراد أن يحتفل بطهور ولديه حتى يجمع بين العيد والفرح ، واحتفل لهذا احتفالا كبيراً ، فدعا إليه حاميات دمياط وتينيس والاسكندرية ليشتركوا فى هذا الحفل ، ويبدو أنه كان للروم عيون وجواسيس فى هذه الثغور ، فأبلغوهم خبر استدعاء حامياتها ، فانتهبوا هذه الفرصة السانحة ، وانقضوا على دمياط صباح يوم عرفة ، فقتلوا ونهبوا وأسروا ، ولكن الكتب التاريخية تروى أن عنيسة كان قد غضب على قائد من قواد دمياط يدعى أبو جعفر بن الأكشف ، فسجنه فى بعض أبرجة المدينة ، فلما اشتد الخطب بنزول الروم ، مضى إلى أبى جعفر فى سجنه بعض أعوانه ، فكسروا قيده وأخرجوه ، والتفوا حوله ، وانضم إليهم نفر من أهل المدينة وتقدموا جميعاً لمحاربة الروم حتى هزموهم وأخرجوهم من المدينة ، ففرحوا عنها إلى تينيس فلم يقدروا عليها ، وعادوا إلى بلادهم .

وبلغ الخبر إلى عنيسة فى عاصمته — القسطنطينية — فنفر فى الحال بجند مصر ، ولكنه وصل إلى دمياط متأخراً بعد مغادرة الروم لها ، فأخذ يعنى بتحصين المدينة .

وأخبار الفتح العربي لمصر تروى أن دمياط القديمة كان يحيط بها سور، فلعله انشئ في عهد الرومان ، وأخبار هذه الغارة تروى أيضاً أن أبا جعفر بن الأكشاف سجن في بعض أبرجة المدينة ؛ فالمدينة إذن كان لها سور قديم ، وكان بها بعض الأبرجة والحصون ، ولكن نجاح هذه الغارة يبين أن هذه التحصينات جميعاً كانت قد تهدمت وتشعث بنيرانها ، لهذا لم يكن من الغريب أن يأخذ الذعر من الخليفة العباسي المتوكل مأخذه عندما اتصله أخبار هذه الغارة الخطيرة ، فبرسل في الحال إلى واليه على مصر يأمره ببناء أسوار قوية تحيط بثغور مصر الشرقية : دمياط وتينس والفرما ؛ وأسرع عنبسة بتنفيذ أوامر الخليفة : فبدأ في بناء سور دمياط وحصونها يوم الاثنين لثلاث خلون من شهر رمضان سنة ٢٣٩ (٥ فبراير ٨٥٤) ، وفي نفس السنة بنيت أسوار تينس والفرما وحصونها .

وكان لهذه الغارة أثر خطير آخر ، فقد أدرك الخليفة أيضاً أن هذه الأسوار والحصون لا تكفي للدفاع عن ثغور تطل على البحر ، وإنما الدفاع الحق عنها يكون بإنشاء الأساطيل ، لأن الروم لا يفدون إليها إلا في البحر وفي أساطيل قوية ، فأمر واليه أن يعنى بشئون الأساطيل ، يقول المؤرخ المصري الكبير تقي الدين المقرئ تعقيباً على أخبار هذه الغارة : « وأنشأ من حينئذ الأسطول بمصر » ، ويقول في مكان آخر : « فوقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر ، وانتدب الأمراء له الرماة ، فاجتهد الناس بمصر في تعليم أولادهم الرماية » ؛ فالفضل في إنشاء أساطيل مصرية — سيكون لها شأن أي شأن في الدفاع عن سواحل مصر بعد ذلك ، وفي حروب مصر الإسلامية — إنما يرجع إلى هذه الغارة .

ونحن نلاحظ أن العناية بتحسين دمياط برّاً وبحراً في عهد المتوكل قد أتت ثمارها ، فلم تفلح على دمياط غارة بعد ذلك قوية خطيرة كتلك التي وفدت في عهد عنبسة ، وإنما كانت الغارات اللاحقة جميعاً غارات قرصنة هدفها الأول والأخير النهب والسلب ، والأسر والقتل ، أما دمياط فبقيت سليمة ترد عادية المعتدين بفضل جندها وأهلها وحصونها وأساطيلها .

دمياط في العصر الفاطمي :

وقد ازدهرت دمياط في العصر الفاطمي، وبدأت تتفوق على رصيفتها تنيس والفرما، وتأخذ مكان الصدارة بين موانئ مصر الشرقية ، وساعدها على هذا أن الفرع البلوزي أخذ منذ ذلك الحين يضيق وتطمره الرمال ويفقد أهميته شيئاً فشيئاً ، بينما أخذ فرع دمياط يتسع وينطلق إلى البحر وتزداد أهميته ويكثر استعماله .

ولعل أكبر الدوافع التي دفعت الفاطميين للعناية بفرع دمياط أنه كان مركزاً هاماً لصناعة النسيج ، وتحيط به وتتبعه مدن وقرى كثيرة كلها مراكز لصناعة النسيج أيضاً ، فقد كانت مصر تنقسم إدارياً وقتذاك إلى كور (وواحدتها كورة) ، وهي ما يقابل المديرية أو المحافظة في مصطلحنا الحديث ، وكان الجزء الشمالي الشرقي من مصر يكون كورة كبيرة واحدة تسمى (كورة تنيس ودمياط) ، والكورة — كما يتبين من اسمها — مركزان هاما ، هما : تنيس ودمياط ، لانتفضل إحداهما الأخرى ، وإنما كانتا تتناوبان في احتلال الصدارة بين مدن هذه الكورة إلى أن ضعف شأن تنيس وتلاشت في العصر الأيوبي ، فأصبحت دمياط هي المدينة الأولى بين مدن هذه الكورة .

وكان يقع دمياط مدن وقرى كثيرة لها ذكر ومقام ملحوظ في أقوال المؤرخين ، لأنها كانت جميعاً مراكز هامة — كما ذكرنا — لصناعة النسيج ، وأهم هذه المدن : شطا وتنيس وتونة وبورة ودبيق .

وكان يلي دمياط وتنيس دائماً واليان من قبل وإلى مصر العام ، ثم من قبل الخلفاء الفاطميين بعد ذلك ، كما كان يشرف على القضاء في مصر كلها قاض أكبر ، وهو الذي ائتمن به في أول العصر الفاطمي بقاضى القضاء ، وكان هذا القاضى الأكبر — أو قاضى القضاء — يعين من قبله قضاة ينوبون عنه في الحكم بالمدن الكبيرة كدمياط وتنيس ، وكان هذا القاضى يتخذ مقره في تنيس أحياناً وينيب عنه بدوره من يتولى عنه الحكم في دمياط ، وقد يحدث العكس ، أو قد يتولى الحكم بنفسه في المدينتين متنقلاً بينهما .

ويستفاد من كلام الكندي وهو يؤرخ لبعض قضاة دمياط أن قاضى هذه المدينة في العصر الفاطمى كان يمحى بها تسعة أشهر للنظر في القضايا والأحكام ، ثم يعود إلى القسطنطينية فيقيم بها «ثلاثة أشهر : رجب وشعبان ورمضان ... بحسب العادة» . وكان في كل من دمياط وتونس في العصر الفاطمى محتسب خاص — يعين من قبل محتسب القاهرة — للإشراف على شئون المدينتين الاجتماعيه والاقتصادية .

والدولة الفاطمية نشأت أول ما نشأت في تونس — وكانت تسمى وقتذاك إفريقية وهي إقليم يطل على البحر الأبيض المتوسط ، ولهذا عني الفاطميون — وهم لا يزالون في إفريقية — عناية فائقة بالأسطول ، فأنشأوا السفن الكثيرة وزودوها بالرجال والعتاد ، وقد أسهمت أساطيلهم مساهمة فعالة في غاراتهم المتتالية على مصر حتى تم لهم فتحها في سنة ٩٣٥٨ .

فلما انتقلوا إلى مصر لم تقل عنايتهم بالأساطيل ، بل زادت ، ويقال إن المعز — أول خلفائهم بمصر — أنشأ في عهده أسطولا يتكون من ستائة سفينة .

وكانت هذه السفن الحربية تبنى فيما كان يسمى في العصور الإسلامية : (دار الصناعة) أى دار صناعة السفن ، وكان في القسطنطينية قبل العصر الفاطمى دار صناعة فأبقى عليها الفاطميون ، وأنشأوا إلى جانبها دار صناعة جديدة في (المقس) — ميناء القاهرة — ، وكان هناك لاشك دار صناعة في دمياط منذ بدىء بإنشاء الأسطول في عهد عبسة ، كما كانت هناك دار صناعة أخرى في الاسكندرية .

وقد عني الفاطميون عناية زائدة بهذه الدور ، وبخاصة دار صناعة دمياط ، فقد دخلت بلاد الشام في ملكهم ، ودمياط أقرب موانئ مصر لهذه البلاد ، كما أنها معرضة لغارات الصليبيين عليها كما كانت معرضة لغارات البيزنطيين من قبل .

وكان الفاطميون يعنون بالأساطيل وتجهيزها والإشراف على الثغور عناية سنوية دائمة لانقاف ولا تنقطع ، وكان موعد هذه العناية في شهر برمهاث من كل سنة عندما يصحوا الجوع ، يقول المقريزى : «وفي برمهاث تجرى المراكب السفرية في البحر الملح إلى ديار مصر من المغرب والروم ، ويهتم فيه بتجديد الأجناد إلى الثغور كالاسكندرية

ودمياط وتنبس ورشيد ، وفيه كانت تجهز الأساطيل ومراكب الشواني لحفظ الثغور ، وينص في مكان آخر على أن سفن الأسطول كانت تصنع في دور الصناعة جميعاً في مصر والاسكندرية ودمياط ، يقول : « وكان من أهم أمورهم (يقصد الفاطميين) احتفالهم بالأساطيل والأجناد ، ومواصلة انشاء المراكب بمصر والاسكندرية ودمياط من الشواني الحربية والشلنديات والمسطحات إلى بلاد الساحل حين كانت بأيديهم ، مثل صور وعكا وعسقلان » .

وكان أسطول دمياط يقوم على حمايتها من عدوان المغير ، كما حدث في عهد الخليفة الفاطمي الفائز ، في جمادى الآخرة من سنة ٥٥٥٠ (أغسطس ١١٥٥) وصل إلى دمياط أسطول صاحب صقلية في نحوستين مركباً « فعاثوا وقتلوا ونزلوا بتنبس ورشيد والاسكندرية فأكثروا فيها الفساد » فتصدى لهم أسطول دمياط حتى ردهم .

وحدث أيضاً في خلافة العاضد — آخر خلفائهم — ووزارة شاور الثانية ، أن نزل أسطول الصليبيين في عشرين شونة (أي سفينة حربية كبيرة) على تنيس فقتل وأسروا ، فتولى أسطول دمياط محاربة هذه السفن وردّها .

هاتان هما الغارتان اللتان نزلتا على دمياط وما مجاورها طيلة العصر الفاطمي ، إحداهما وفدت من صقلية ، والثانية أرسلها الصليبيون في الشام ، مما بين في وضوح أن غارات البيزنطيين على شواطئ مصر قد انقطعت في العصر الفاطمي ، ولعل السبب في هذا أن الدولة البيزنطية كانت قد أصابها الضعف والكلال ، وأن العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين كانت في معظمها علاقات طيبة .

ولكننا نلاحظ أيضاً أن خطراً مسيحياً جديداً أخذ يظهر في الأفق ، ويهدد دمياط وسواحل مصر ؛ كان يمثل هذا الخطر أساطيل النورماندين في صقلية : وأساطيل الصليبيين في سواحل الشام بعد استيلائهم عليها في أعقاب الحملة الصليبية الأولى في أواخر القرن الخامس الهجري (١١م) .

غير أن واجب الأسطول المصري في العصر الفاطمي لم يكن مقصوراً على الدفاع عن الشواطئ فحسب ؛ وإنما كان واجبه الأصلي الخروج إلى مياه البحر الأبيض .

المتوسط للغزو، وكانت الأساطيل تخرج للغزو من ثغر دمياط - لامن الأسكندرية -
فاذا عادت بغنائمها نزلت عليه أولاً.

وكان الخلفاء الفاطميون يحتفلون بالأساطيل عند خروجهما للغزو احتفالاً كبيراً رائعاً،
فقد كان لهم منظره بالمقس (ميناء القاهرة) يجلس فيها الخليفة لوداع الأسطول قبل
خروجه للغزو، ولاستقباله إذا عاد، وكانت العادة إذا تم إعداد الأساطيل أن يجلس
الخليفة في هذه المنظره وبين يديه الوزير، ويأق القواد بالسفن من دار الصناعة
بالقساط حتى يصلوا بها إلى المقس، فيقومون بعرض حربي بحري جميل، فتتحرك
السفن في النيل بين يدي الخليفة وهي مزينة بأسلحتها ولبوسها، وفيها المنجنقات،
تلعب فتتحدث، وتقام بالمجاديف، كما يفعل في لقاء العدو بالبحر الملح، ويحضر بين
يدي الخليفة المقدم والرئيس، فيوصيهم ما، ويدعو للجاعة بالنصرة والسلامة... إلخ،
هكذا وصف المقرئ في خطه حفلة العرض البحري قبل خروج الأساطيل المصرية
للفوز في العصر الفاطمي، ثم استورد فنص في وضوح تام على أن هذه الأساطيل
كانت تخرج للغزو من ثغر دمياط، قال: «وتنحدر إلى دمياط، وتخرج إلى البحر
الملح، فيكون لها ببلاد العدو صيت وهيبه، فاذا وقع لهم مركب لايسألون عما فيه سوى
الصغار والرجال والنساء والسلاح، وما عدا ذلك فلا أسطول» أي أن رجال الأسطول
كانوا يقدمون للدولة أسراهم من الأطفال والرجال والنساء، وغنيمة من السلاح،
أما غنائمهم من الأموال والمتاع فكانت تترك لهم جزاء وفاقا على بلائهم في الغزو.
وقد وصلتنا أخبار قليلة عن بعض هذه الغزوات البحرية وانتصاراتها في العصر
الفاطمي، وكيف كانت تستقبل عند عودتها، وماذا كان يفعل بأسراها.

ذكر المقرئ أنه قدم على الأسطول مرة أمير يقال له: حرب بن فور، فكسب
بطسة (أي سفينة حربية كبيرة) حصل فيها خمسمائة رجل..

وأتفق مرة أن قدم على الأسطول قائد آخر يدعى سيف الملك الجمل، فخرج
للفوز، وأسر بطسة عظيمة فيها ألف وخمسمائة شخص، بعد أن قتل منهم نحواً من مائة
وعشرين رجلاً، وعاد بالسفينة والأسرى إلى دمياط، ثم صعد بها إلى القاهرة،
فخرج الخليفة إلى منظره المقس، واحتفل بعودته احتفالاً رائعاً، وأطلق الأسرى بين

يديه ، «واستدعيت الجمال لركوبهم ، وشق بهم القاهرة ومصر ، وهم كل اثنين على جمل ظهراً لظهر» .

دمياط في العصر الديوبولي:

وفي منتصف القرن السادس الهجري (١٢م) قضى على الدولة الفاطمية الشيعية وخلفتها في حكم مصر دولة جديدة سنية المذهب هي دولة بنى أيوب ؛ وفي عهد بنى أيوب لعبت دمياط دوراً خطيراً في تاريخ مصر السياسى والحربى ، فقد كثرت غارات الصليبيين العنيفة على هذا الثغر ، ولكن دمياط صمدت لهذه الغارات ، ودافعتها ودفعتها في شجاعة وبطولة :

١ - في عصر صلاح الدين

لقد بدأت هذه الغارات في سنة ٥٦٥هـ وصلاح الدين لا يزال يعد وزيراً للعاضد، ففي الثالث من صفر من تلك السنة وصلت إلى دمياط أساطيل الصليبيين في نحو ألف مركب تحمل مائتي ألف فارس وراجل ، واستطاعوا أن ينزلوا بالبر ، وظلوا يحاصرون المدينة ثلاثة وخمسين يوماً ، فأسرع صلاح الدين وأرسل إليها الجيوش بقيادة ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه وخاله شهاب الدين الحارثي ، وأسرع الخليفة العاضد فقدم لصلاح الدين كل مساعدة ممكنة ، ثم خرج صلاح الدين بنفسه ليشرف على القتال في دمياط ، ووصلت أخبار هذه الحملة إلى نور الدين في الشام ، فأرسل إليه الأمداد ، وخرج نور الدين بنفسه لمناوشة أملاك الصليبيين في الشام ، فاضطروا أمام هذا وذاك أن يغادروا المدينة في الحادى والعشرين من ربيع الأول بعد هذا الحصار الطويل دون أن يصيبوا منها شيئاً، وبعد أن «غرق لهم نحو ثلاثمائة مركب ، وقتل رجالهم بفناء وقع فيهم ، وأحرقوا ما ثقل عليهم حملة من المنجنيقات وغيرها» .

واجه صلاح الدين هذه الشدة العظمى في دمياط وهو لا يزال يخطط لخطواته الأولى نحو ملك مصر ، لهذا نجده يعنى بهذا الثغر وبتحصينه — في قابل أيامه — بعناية

— ١٨ —

خاصة ؛ ففي الثاني والعشرين من شعبان سنة ٥٧٢ (فبراير ١١٧٧) — وقد استقل صلاح الدين بمصر — خرج من القاهرة فقصده إلى دمياط ليارتها ، وكان في صحبته ولده : الأفضل على ، والعزیز عثمان ، وكتبه العباد الأصفهاني ، فكث بالمدينة يومين ثم رحل منها إلى الاسكندرية ، وقد حدد العباد الأصفهاني الغرض من هذه الزيارة بقوله : « ورأى (أى صلاح الدين) في الحضور بالثغر المذكور ومشاهدته الاحتياط » ، كما ذكر أن سفن الأسطول بدمياط كانت قد خرجت للغزو وعادت بسبي كثير ، قال : « وكان له سبي كثير جلبه الأسطول » .

وفي سنة ٥٧٧ (١١٨٢—١١٨١) كان قد مضى على صلاح الدين منذ استقل بمصر عشر سنوات ، وأراد أن يرحل إلى الشام ليوفر جهوده كلها لتحقيق هدفه الأسمى وهو محاربة الصليبيين وطردهم من البلاد الإسلامية ، ولكنه أراد — قبل أن يغادر مصر — أن يستوثق من مناعتها وقوة حصونها وثغورها ، ففي هذه السنة بدأ بناء قلعة الجبل بالقاهرة ، وفيها (في ربيع الأول) أغار الفرنج على تنيس واغتصبوا مركباً للتجار ، فاشتد خوف أهلها ، وأرسل السلطان رجاله لعمارة قلعة تنيس وتجديد الآلات بها ، فقدروا « لعمارة سورها القديم على أساساته الباقية مبلغ ثلاثة آلاف دينار » ، وفيها أيضاً انتشر الخبر بأن (الابرنس ارناط) صاحب الكرك على عزم الخروج إلى أيلة ومنها إلى تباء رغبة في الاستيلاء على المدينة المنورة « فورد الخبر من نائب قلعة أيلة بشدة الخوف من الفرنج » .

واتخذ صلاح الدين لهذا الخطر عدته ، فاستدعى خمسين مركباً من مراكب دمياط لتشارك في حماية ساحل مصر (الفسطاط) ، وأمر ببناء برج في السويس فيه الفرسان لحفظ طريق الصعيد ، وأمر بعمارة قلعة تنيس وأسوارها — كما سبق أن ذكرنا — وكتب إلى دمياط بترتيب المقاتلة على البرجين بها ، فشدت المراكب إلى السلسلة ليقاتل عليها ويدافع عن الدخول من بين البرجين ، ورم شعث سور المدينة ، وسدت ثلمه ، واتقنت السلسلة التي بين البرجين ، يقول المقرئى : « فبلغت النفقة على ذلك ألف ألف دينار » .

وفي شعبان من نفس السنة شرع في إصلاح سور دمياط وبناء ما تهدم منه ، وكان ذرع هذا السور كما نص المقریزی : « أربعة آلاف وستمائة وثلاثون ذراعاً » كما شرع في بناء برج جديد بالمدينة .

ولم يقنع صلاح الدين بهذه الأوامر يصدرها ، وإنما رحل بنفسه في شهر شوال إلى مدينة الاسكندرية فأشرفت على حصونها وأسوارها ، وتركها في أول ذي القعدة فسار إلى دمياط وأشرف بنفسه أيضاً على ما تم من إصلاح أسوارها وتحصين قلاعها وأبراجها وسلسلتها ثم عاد إلى القاهرة .

وظلت العناية بدمياط وتنيس دائبة مستمرة حتى آخر سنة من حياة صلاح الدين ، ففي سنة ٥٨٨ — أى قبل وفاته بسنة واحدة — صدر الأمر بإخلاء تنيس ونقل أهلها إلى دمياط ، فعملت تنيس لإلأمن المقاتلة ، كما صدر الأمر بحفر خندق حول دمياط وعمل جسر عند سلسلة البرج بها .

هذه هي دمياط حتى آخر عهد صلاح الدين ، قد عني بتحسينها العناية الفائقة فحفر حولها خندق يحميها ، ورمت أسوارها ترهما شاملاً ، وبني بها برج جديد ، وجددت سلسلتها . وبني عندها جسر لحمايتها ، وشدت إليها السفن لقتال عنها المغيرين ، وشحنت هذه الحصون جميعاً بالمقاتلة ، وزيد عددهم ، وزادت النفقة عليهم . ولم تنقطع العناية بدمياط في عهد خلفاء صلاح الدين ، بل استمرت وزادت ، فالمؤرخون يروون أن العزيز بن صلاح الدين ، عزم في ذي الحجة من سنة ٥٩٢ (أكتوبر ١١٩٥) « على نقض الأهرام ونقل حجارتها إلى سور دمياط ، فقل له إن المؤونة تعظم في هدمها والفائدة تقل من حجرها . فانتقل رأيه من الهرمين إلى الهرم الصغير وهو مبنى بالحجارة الصوان ، فشرع في هدمه » ؛ ولكن هؤلاء المؤرخين لم يذكروا بعد هذا هل نقلت حجارة هذا الهرم الصغير فعلاً لتحصين سور دمياط أو أنها استخدمت في أغراض أخرى .

وفي عهد العادل أبي بكر — أخى صلاح الدين — أرسل في سنة ٥٩٩ — وهو بالشام — جنداً من رجالها لحفظ دمياط من الفرنج .

٢ - في عهد الملك الكامل محمد

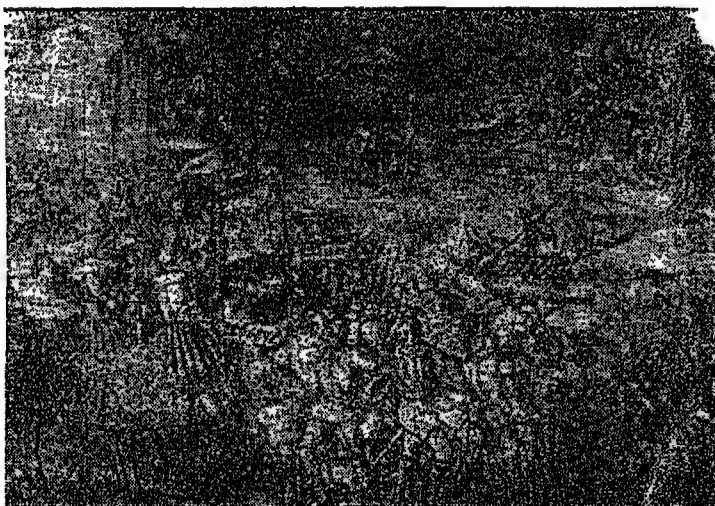
وفي أواخر عهد الملك العادل أبي بكر أصاب الحروب الصليبية انقلاب جديد خطير فقد لاحظ الصليبيون أن مصر هي حصن الإسلام القوى وضيعته الغنية، وأنها مصدر الأمداد القوية الوفيرة من الرجال والميرة والسلاح، وبفضل هذا كله استطاع صلاح الدين أن ينتصر عليهم انتصاراته الحاسمة، ويستعيد منهم بيت المقدس والكرك والشوبك وغيرها من عشرات المدن والقرى؛ لهذا كله قرأهم على أن يبدأ بمصر، فإذا استولوا عليها فقد سهل عليهم كل شيء، واستطاعوا في سر أن يستعيدوا بيت المقدس، بل ويملكوا الشام كله.

بدأوا هذا الاتجاه في سنة ٦١٥ (١٢١٨) والملك العادل يناضلهم في الشام، وفي مصر ابنه الملك الكامل محمد ينوب عنه في الحكم.

واتخذ الصليبيون لهذا الأمر عدته، ووصلتهم الأمداد الوفيرة من ممالك أوروبا المختلفة، فلما تكامل عددهم أبحروا - بقيادة جان دي برين ملك بيت المقدس - من عكا إلى دمياط في أسطول ضخم كثير العدد يحمل نحو السبعين ألف فارس وأربعمائة ألف رجل، ووصلوا إلى شواطئ دمياط، ونزلوا ببرها الغربي يوم الثلاثاء رابع ربيع الأول من سنة ٦١٥ (يونيو ١٢١٨)، وكان هذا البر الغربي يسمى جزيرة دمياط وهي تسمية مجازية لأن مياه البحر تحيط به شمالاً، ومياه النيل تحيط به شرقاً، كما كان يسمى أيضاً جزيرة دمياط، والجزيرة في اللغة الناحية، أو لعله سمي كذلك لأنه يجاز إليه من دمياط.

وعسكر الصليبيون في مجموعهم الحاشدة بهذا البر الغربي تجاه دمياط وحصنوا معسكرهم، فحفروا حوله خندقاً وأحاطوه بسور وستائر.

وكانت دمياط - كما سبق أن أسلفنا - مدينة حصينة بغاية الحصانة تحيط بها الأسوار والقلاع والأبراج القوية الضخمة، ويحيط بهذه الأسوار الخندق الذي أنشئ في



الفرنج ينزلون بدمياط في عهد الملك الكامل

وأواخر عهد صلاح الدين. وكان عند مدخل فرع دمياط برج ضخيم مشحون بالمقاتلة والسلاسل الحديدية المتينة تمتد منه إلى برج مقابل على شاطئ دمياط لمنع سفن العدو من العبور في النيل والوصول إلى المدينة. وكان هذا البرج هو مفتاح دمياط. لا يمكن للصليبيين الوصول إليها إلا إذا استولوا عليه، ولهذا توفرت جهودهم كلها في أول الأمر للاستيلاء على هذا البرج المنيع، واستعانوا لتحقيق هذا الهدف ببناء أبراج خشبية عالية أقاموها على سفنهم وتقدموا بها إلى البرج لمحاربة جنده وحاميته ولكن هؤلاء الجنود استطاعوا أن يردوهم أكثر من مرة.

ووصلت أخبار نزول الصليبيين إلى بر دمياط الغربي إلى الملك الكامل، فخرج بجيشه متجهاً إلى الشمال، وأرسل الأساطيل إلى دمياط، وأمر الولاة بجمع العربان. ونزل الكامل بمنزلة العادلة قرب دمياط، وعسكر بها. هذا والملك العادل يرسل إليه المدد تلو المدد من الشام ليستعين بها جميعاً في محنته.

وظل البرج يقاوم ويمنع أربعة أشهر طويلاً، وأخيراً بنى الفرنج برجاً عالياً ضخماً وأقاموه على بطسة كبيرة، وتقدموا به تحت وابل من سهام المصريين إلى أن أسندوا برجهم إلى البرج المدافع، وقاتلوا به قتالاً عنيفاً إلى أن استولوا على برج دمياط.

وكان استيلائهم على هذا البرج حادثاً خطيراً، ألياً فقد سهل لهم الاستيلاء على المدينة بعد ذلك، وكفى للدلالة على خطورة هذا الحادث أن يذكر أن الملك العادل عندما سمع بخبره وهو مقيم بمصر بالشم تآوه تآوهاً شديداً، ودق بيده على صدره أسفاً وحزناً، ومريض من ساعته، ثم لم يلبث أن مات من حسرته بعد أيام. وخلص ملك مصر للملك الكامل محمد، فاشتد ثقل العبء الملقى على كتفيه، لأن الصليبيين أقدموا بعد استيلائهم على البرج فحطموا سلسله لتجوز مراكبهم في نهر النيل، فاضطر الكامل لإقامة جسر عظيم جنوبي البرج لمنعهم، ولكنهم قاتلوا عليه قتالاً شديداً إلى أن قطعوه، ويقال أن الكامل صرف على البرج والحسرة في ذلك الوقت ما ينيف على سبعين ألف دينار. ثم لم يأس، وإنما أمر أن تغرق عدة من السفن في عرض النيل لمنع سفن الصليبيين من العبور جنوباً، واحتال الفرنج على هذا الاجراء

الأخير حيلة ماكرة، فقد كان هناك على البرج الغربي خليج قديم يعرف بالخليج الأزرق، كان يجري فيه النيل فيصب في البحر ولكن الرمال طمرته، فأعادوا حفره، وأصعدوا فيه سفنهم حتى وصلت إلى مدينة بورة التي تقابل منزلة العادلية حيث يعسكر الكامل بجيوشه، وبدأت المناوشات بين الحليشين.

كل هذا ودمياط لازالت آمنة سالمة وسورها بحميا وأبوابها مفتحة، والميرة والأمداد تصل إليها دون انقطاع والنيل لا يزال يفصل بينها وبين العدو، والعربان تقض مضاجع الصليبيين فتتخطفهم من معسكراتهم في الليل، حتى «امتنعوا من الرقاد خوفاً من غاراتهم» وقامت رياح عاصفة فقطعت مراسي مرمة الفرنج (وهي سفينة ضخمة جداً مشحونة بالميرة والسلاح) ويقول عنها المقرئ «وكانت من عجائب الدنيا، فمرت إلى بر المسلمين فأخذوها، فاذا هي مصفحة بالحديد لاتعمل فيها النار، ومساحتها خمسمائة ذراع فكسروها فاذا فيها مسامير زنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلاً».

ولو سارت الأمور سيرها الطبيعي لما وصل الصليبيون إلى دمياط، ولكن الهلاك نبت في معسكر المسلمين نفسه فقد انتهز أحد أمراءهم الكبار ويدعى عماد الدين أحمد ابن المشطوب فرصة موت الملك العادل، واستمال إليه عدداً من قواد الحليش وحاول أن يخلع الكامل ويولى مكانه أخاه الملك الفائز، وعلم الكامل بالمؤامرة فخشى على نفسه، فترك معسكره بالعادلية في الليل وانسحب جنوباً إلى أشموم طناح، وأصبح الجند بغير سلطان، فنفرت كلمتهم «وتركوا أثقالهم ونخيامهم وأموالهم وأسلحتهم ولحقوا بالسلطان» ورحب الفرنج بالفرصة المواتية، ونزلوا إلى البر الشرقي يوم الثلاثاء سادس عشر ذي القعدة دون أن يلقوا أية مقاومة، واستولوا على جميع ما كان في معسكر المسلمين «وكان شيئاً لا يحيط به الوصف»، وعسكروا في البر الشرقي، وحصنوا معسكرهم كالمعتاد فحفروا حوله خندقاً وبنوا سوراً، وبدأوا يحاصرون دمياط، ولكن أهلها صمدوا للقتال وقاوموا مقاومة مجيدة عنيفة، وخضعوا إيان هذا الحصار لشدائد مريرة، فقلت الأقوات عندهم، وكان بالمدينة — غير أهلها — عشرون ألف مقاتل، فلما طال بهم الحصار أنهكهم الأمراض وغلّت الأسعار حتى بيع رطل السكر بمائة وأربعين ديناراً، والد الحاجة بثلاثين، وراوية الماء بأربعين درهماً، واحتال السلطان للاتصال بأهل دمياط

لتشجيعهم وتقوية روحهم المعنوية، فانتدب لذلك رجلاً من جنوده يدعى شمائل، فكان يسبح في الماء بعيداً عن أعين الفرنج حتى يصل إلى أهل دمياط فيعدهم بوصول النجيدات.

وطال الحصار بالمدينة ستة عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً، حتى اشتد بهم الضيق وعدمت لديهم الأقوات، وامتألت الطرقات والمساكن بالموتى، وتسور الفرنج المدينة أخيراً ودخلوها في يوم الثلاثاء لخمس بقين من شعبان سنة ٦١٦ (نوفمبر ١٢١٩)، فوضعوا السيف في الناس وأسرفوا في قتلهم، وجعلوا جامع المدينة كنيسة، وأنشأوا في القرى المحيطة، وأخذوا يحصنون المدينة وأسوارها، ليتخذوها قاعدة يتقدمون منها نحو الجنوب. وعسكر الملك الكامل قبالة طلخا عند مخرج بحر أشموم طناح (البحر الصغير الآن)، وشرع الجند يبنون الدور والفنادق والحمامات والأسواق في هذه المنزلة، (وقد سميت بعد ذلك المنصورة تيمناً بانتصار الكامل)، وكان قد أرسل الرسل إلى ملوك الأيوبيين في الشام من أخوته وأقاربه يسألهم النجدة والمعونة، فوصله في ذلك الوقت أخوه الملك المعظم عيسى بجيش كبير، فاقوى به قلبه، وخاصة أنه سعى بعد وصوله فأنجاه من ورطته بابعاد أخيه الفائر وأبن المشطوب إلى الشام، فهذأت الفتنة، ووصلت نجدة أخرى من حاة بقيادة المظفر الثاني ابن أخت الملك الكامل في جيش كثيف، ففرح بوصولها. ثم وصلت نجدة كبرى بقيادة الملك الأشرف موسى أخى الكامل، وبلغت بذلك عدة فرسان المسلمين نحو أربعين ألف فارس، فقويت قلوب المسلمين، وبدأوا يستعدون للمعركة الحاسمة.

وتقدم الصليبيون — بعد تحصين دمياط — وبعد أن وصلتهم أمداد وفيرة العدد نحو الجنوب في حدهم وحديدتهم، ونزلوا قبالة جيش المسلمين شمال بحر أشموم طناح، ولا يفصل بين المعسكرين غير هذا البحر.

واشتد القتال بين الفريقين، وأبلى المسلمون بلاء حسناً، فاستولوا على نحو قسع سفن كبيرة من سفن الفرنج التي تحمل إليهم الميرة من دمياط، وأسروا منهم ألفين ومائتين، ثم اجتال الكامل فأرسل سفناً من أسطوله بقيادة الأمير بدر الدين بن حصون في بحر:

المحلة، وهو فرع كان يخرج من النيل قرب بنها الحالية، ويتصل به ثمانية شمالي المنصورة. فحالت هذه السفن بين مراكب الفرنج الآتية من الشمال بالميرة وبين الوصول إلى معسكرهم عند المنصورة. ثم عبر جماعة من المسلمين في بحر المحلة هذا إلى الأرض التي يعسكر عليها الفرنج وحفروا مكاناً عظيماً في النيل، وكان في قوة الزيادة، فركب الماء أكثر تلك الأرض، وصار حائلاً بين الفرنج ومدينة دمياط، وانحصروا فلم يبق لهم سوى طريق ضيقة، فأمر السلطان في الحال بنصب الحسور عند أشجور طنناح، فعبرت العساكر عليها، وملك الطريق التي يسلكها الفرنج إلى دمياط إذا أرادوا الوصول إليها، فاضطربوا وضاعت عليهم الأرض.

وفت ذلك كله في عضد الفرنج، واضطربت أحوالهم وبدأوا يفاوضون الكامل، ويعرضون أن يتركوا دمياط مقابل أن تعاد إليهم القدس وعسقلان وطبرية وجبله وللأذقية والكرك والشوبك وغيرها من المدن الكثيرة التي كان قد استعادها منهم البطل صلاح الدين، وقبل الكامل أول الأمر أن يسلم لهم هذه المدن جميعاً عدا الكرك والشوبك لمكانتهما الحربية، ولكنهم أصرروا على طلباتهم، فلما أحيط بهم من الشمال، وأصبحوا محاصرين بالمسلمين من كل الجهات، أدركوا أنهم هزموا، فهدموا خيامهم وبجانيقهم وألقوا فيها النار، وهموا بالرحيل على المسلمين ومقاتلتهم للعودة إلى دمياط «فحال بينهم وبين ذلك كثرة للوحد والمياه الراكبة على الأرض، ووخشوا من الاقلمة لقلة أقواتهم، فذلوا وسألوا الأمان على أن يتركوا دمياط للمسلمين» دون قيد أو شرط.

وبدأ الكامل يستشير أهله وأصحابه، فأشار عليه البعض أن يواصل القتال حتى يتم له النصر النهائي، وأشار البعض الآخر أن يعطى للفرنج الأمان إجابة لطلبهم، وتغلب الرأي الأخير خوفاً من أن يصل إلى الفرنج مدد جديد فيستأنفون القتال، واتفق الفريقان على أن يقدم كل منهما رهائن للآخر حتى يتم تسليم دمياط، فأرسل الفرنج عشرين ملكاً من ملوكهم رهائن عند الملك الكامل، وأرسل الكامل ابنه الصالح نجم الدين أيوب وعدداً من قواده. وجلس الكامل مجلساً عظيماً لاستقبال هؤلاء الملوك الرهائن، وحوله أخوته وأهل بيته «وصار في أبهة وناموس مهاب»، وخرج قسوس

الفرنج ورهبانهم إلى دمياط : فسلموها للمسلمين . تاسع عشرى رجب سنة ٦١٨ ، فلما تم تسليمها بعث الفرنج الصالح نجم الدين ومن معه من الأمراء ، كما أطلق الكامل رهائه من الملوك ، واتفق الفريقان بعد هذا على هدنة مدتها ثمانية أعوام ، وعلى أن يطلق كل منهما من عنده من الأسرى . ودخل الملك الكامل دمياط وفي ركابه أخوته وقواده وعساكره ، وكان يوم دخوله إليها من الأيام المذكورة وأرسلت البشائر بأخذ دمياط إلى كل البلاد الإسلامية .

وهكذا نزع الصليبيون عن دمياط بعد أن قضوا فيها وعلى شاطئها الغربى والشرقى ثلاث سنين ، وأربعة أشهر ، وتسعة عشر يوماً .

وتبارى شعراء العصر — كالعادة — في تمجيد هذا النصر والاشادة به ، وكان أجمل ما قيل في هذه المناسبة قصيدة الشاعر الكبير شرف الدين بن عنين التى قال فيها :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا	إذا جهلت آياتنا والقنا للدنا
غداة التقينا دون دمياط جحفا	من الروم لا يحصى يقينا ولاظنا
وأطعمهم فينا غرور فأرقلوا	إلينا سراعاً بالجهاد وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم	بأطرافها حتى استجاروا بنا منا
بدا الموت من زرق الأسنة أحمر	فألقوا بأيديهم إلينا ، فأحسننا
وما برح الإحسان منا بسمية	نورثها من صيد آبائنا الابنا
وقد عرفت أسيافنا ورقابهم	مواقعها منا ، فإن عاودوا عدنا
منحناهم منا حياة جديدة	فعاشوا بأعناق مقلدة منا
ولو ملكونا لاستباحوا دماءنا	ولوغنا ، ولكننا ملكنا فاسمحننا

٣ - في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب

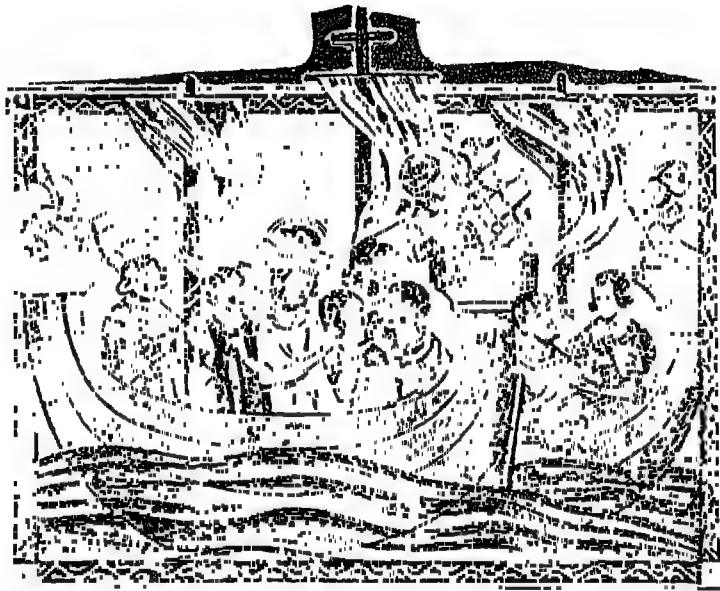
باءت حملة (جان دي برين) بالفشل ، ولكن الصليبيين لم ينسوا مشروعتهم الحديد الذي كان يهدف إلى الإستيلاء على مصر ليسهل عليهم تحقيق أملهم ، وهو امتلاك بيت المقدس وأراضي الشام جميعاً .

لهذا لم يكبد يحمي على الحملة السابقة ثلاثون عاماً حتى أعدوا العدة للاتقضا على دمياط مرة ثالثة . ولم تأت الحملة هذه المرة من سواحل الشام وإنما أتت من فرنسا ، ففي ٢٥ أغسطس سنة ١٢٤٨ (٤ جمادى الأولى سنة ٦٤٦) أبحر من مياه فرنسا أسطول ضخم يزيد على ١٨٠٠ سفينة تجمل ثمانين ألف مقاتل ومنهم عدتهم وسلاحهم ومؤناتهم وخيولهم . وكان قائد هذه الحملة الملك القديس لويس التاسع ملك فرنسا .

ومرت هذه الحملة في طريقها إلى مصر بحوزة قبرص ، فقضت بها بعض الوقت وقد أخطأت في هذا ، لأنها لو اتخذت طريقها إلى مصر دون تلكأ لفاجأت الجيش المصري قبل أن يستعد ويتجهل للخرب أهيته .

ثم أقلعت الحملة من قبرص ، ودمياط قبلتها ، ولكن رياحاً عاصيفة اعترضتها في طريقها ، فاضطرت عدداً كبيراً من سفنها لنحو ٧٠ سفينة - إلى الانفصال والجنوح إلى شواطئ الشام .

وكانت علاقات الود والأخاء تربط بين ملوك الأيوبيين - منذ عهد الملك الكامل - وبين ملوك صقلية النورماندين ، ويقال إن ملك صقلية في ذلك الوقت - الملك فردريك الثاني - أرسل أحد رجاله - متخفياً في زي تاجر - إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب - وكان مقبلاً في الشام حينذاك - ليبلغه نبأ هذه الحملة كي يستعد لمقابلتها . وكان الملك الصالح مريضاً مرضاً خطيراً يعوقه عن ركوب فرسه ، غير أنه انزعج لهذا الخبر ، ولم يبال بآلام مرضه ، وأمر أن يحمل في محفة ، وعاد مسرعاً إلى مصر ، ونزل عند قرية أشحوم طنح في الحرم سنة ٦٤٧ (ابريل ١٢٤٩) وأصدر أوامره في الحال بالاستعداد .



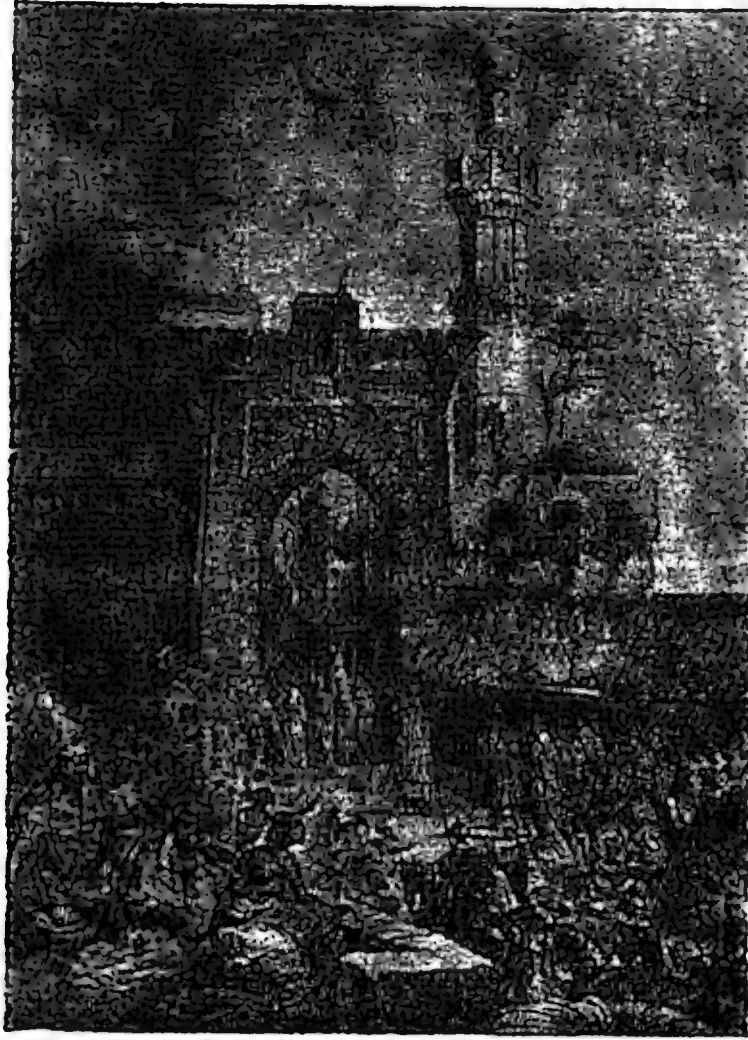
حملة لويس التاسع تغادر فرنسا إلى دمياط

فشحنت دمياط بالا سلحة والأقوات والجنود ، وبعث إلى نائبه في القاهرة — الأمير حسام الدين بن أبي على — بأمره باعداد سفن الأسطول ففعل وأرسلها إلى دمياط شيئاً بعد شيء ، ثم أرسل الملك الصالح الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ على رأس جيش كبير لمعسكر في البر الغربي لدمياط ليكون في مقابلة القرنج إذا قدموا .

هذه الحوادث الأولى وحوادث الحملة جميعاً تدل على أن المصريين أقادوا كل الفائدة من الحملة الماضية ، كما تدل على أن الصليبيين لم يفيدوا شيئاً من أخطائهم في الحملة السابقة فقد أدرك المصريون أن حملة جان دي بريين قد نزلت أول ما نزلت على الشاطئ الغربي لدمياط ، ولذلك أمر الملك الصالح جيشه بأن يعسكر على هذا البر لمنع نزول الصليبيين عليه . وقد كان السبب الأكبر في فشل الحملة الأولى أنها نزلت على دمياط وأرادت الوصول إلى القاهرة بالمسير ممحاذاة فرع دمياط فاعترضتها المجرى المائية الكثيرة المنفوعة عن هذا الفرع ، وكان يمكنهم أن يتفادوا هذا الخطأ في محاولتهم الثانية فينزلوا على الاسكندرية ولكنهم لم يفعلوا .

وفي الساعة الثانية من شهر الجمعة لتسع يقين من صفر سنة ٦٤٧ (يونيو ١٢٤٩) وصلت سفن الفرنسيين إلى الشاطئ المصري وأرست بأزاء المسلمين ، فراعهم كثرة الجيوش المصرية على الشاطئ ، كما خطف بأبصارهم يريق أسلحة المسلمين ، وعلا صهيل خيولهم وزادت جلبه جندهم فأفرغ الفرنسيين وهم لا يزالون في سفنهم ؛ يصف (جواتفيل) — مؤرخ الحملة وأحد قوادها — الرهبة التي ملكت على الفرنسيين أنفسهم عند رؤية الجيش المضرى فيقول : « وصل الملك أحم دمياط ، ووجدنا هناك كل جيوش السلطان تقف على الشاطئ : كتائب جميلة تسر الناظرين ، ذلك أن أسلحة السلطان قد صنعت من ذهب ، فكانت الشمس تشرق على هذه الأسلحة فتزيدها بريقاً ولعناً ، وكانت الحلية التي يؤتون بصنوجهم وأبواقهم الشرقية تدخل الرعب في أفئدة السامعين » .

وفي اليوم التالي استطاع الفرنسيون أن ينزلوا الجند إلى البر — بعيداً عن معسكر المصريين — وبدأت المناوشات بين الجيشين .



جنود لويس التاسع يدخلون دمياط ويحيطون جامعها كنيسة

وهكذا بدأت المعركة : الجيش المصرى كبير العدد وافر العدد - كما وصفه الفرنسيون أنفسهم - ودمياط - على الشاطئ الشرقى مدينة مسورة حصينة قوية قد شحنت بالخند والأقوات والأسلحة لأن السلطان لم ينس أن هزيمتها السابقة إنما كان سببها انعدام الأقوات بعد طول الحصار . فلو أن الأمور سارت سيراً طبيعياً لاستطاع المصريون أن يهزموا هذه الحملة - رغم قوتها وكثرة جندها - ويردوها عن مصر فى يسر وسهولة . ولكن الحوادث تطورت تطوراً آخر .

فكما أن مؤامرة ابن المشطوب كادت تنزل الهزيمة بالجيش المصرى وتوقع الفرقة والاضطرار بين جنوده فى عهد الكامل ، كذلك جد فى حوادث هذه الحملة حادث خطير كاد ينهى بها إلى نفس النتيجة .

كان السلطان الملك الصالح نجم الدين مريضاً - كما ذكرنا - ومقيماً فى أشموم طناح ، وقد اشتد به المرض حتى أصبح على شفا حفرة من الموت ، فلما وصلت السفن الفرنسية إلى شاطئ دمياط أطلق الأمير فخر الدين الحمام الزاجل يحمل النبأ إلى السلطان ، وتعددت رسائله دون أن يتلقى رداً ، فأدرك أن السلطان قد مات ، فانتظر حتى وفى الليل وانسحب بجيشه كله من الشاطئ الغربى إلى دمياط ، ثم تركها وسار جنوباً متجهاً إلى معسكر السلطان عند أشموم طناح ، وأعمته العجلة فلم يحطم الجسر الذى كان يصل بين الشاطئين الشرقى والغربى ، فتركه كما هو .

ونظر أهالى دمياط فوجدوا الجيش الذى أقى لحايتهم قد غادر المدينة ، فخافوا على أرواحهم وخرجوا فى الليل تاركين مدينتهم وأموالهم وديارهم « ولحقوا بالعسكر فى أشموم طناح وهم حفاة عرايا جياع حيارى بمن معهم من النساء والأولاد ، وفروا هاربين إلى القاهرة فأخذ منهم قطاع الطرق ما عليهم من الثياب وتركوهم عرايا » .

ومع أن السلطان كان فى أشد حالات المرض فقد غضب على فخر الدين ومن كان معه من القواد غضباً شديداً ، وأنبه على فعلته ، وأمر بشنق خمسين أميراً من أمراء الكنانية الذين كانوا يتولون الدفاع عن المدينة ، وكاد يأمر بقتل فخر الدين نفسه غير أن الوقت كان حرجاً فكتم غيظه إلى أن تنكشف الغمة . وأصبح الفرنسيون فوجدوا معسكر



المصريين خلاه فظنوها مكيدة ، فأرسلوا كشافهم يستطلعون ، ولشدهما كانت دهشتهم عندهما. وحدوا الجسر قائماً والمدينة خالية تماماً من الجنود والأهلين ، فعبر الجيش الفرنسي إليها واستولى عليها دون عناء ، وفرح بها للفرح كله فقتلوا كانت مشحونة كما ذكرنا بالعتاد والمؤونة .

كان الملك لويس يستطيع أن يتقدم في هذه اللحظة نحو الجنوب قبل أن يفيق المصريون من الارتباك الذي حل بهم ، ولو أنه اتبع هذه الخطة لكتب له النصر . غير أنه تلكأ في دمياط مدة تقرب من الستة شهور ينتظر وصول بقية سفنه التي جنحت بها الريح نحو شواطئ سوريا ، هذه المدة كانت كافية تماماً . لأن يتم فيها المصريون استعدادهم ويستعيدوا نشاطهم ويجمعوا صفوفهم .

ولما وصلت السفن الشاردة دعى الملك لويس التاسع قواده للتشاور ولاختيار الطريق الذي يسلكونه ، أيتجهون نحو الاسكندرية أم يسرون قداماً إلى القاهرة ؟ وأشار الكونت بيتر البريطاني (Count Peter of Brittany) ومعظم قواد الجيش بالمسير إلى الاسكندرية والاستيلاء عليها أولاً ، وكانت حججهم معقولة وصحيحة من الناحية الحربية ، وتتلخص في أن الاسكندرية كميناء تفضل دمياط في كثير ، فهي أصلح لإيواء سفنهم ، وإليها يستطيع أسطولهم أن يصل بالميرة من بلادهم في وقت قصير وجهد قليل . غير أن الكونت أرتوا (Artois) - أخو الملك لويس - عارض هذا الرأي ونصح الملك بالاتجاه مباشرة نحو القاهرة للاستيلاء عليها ، وحجته في ذلك أن القاهرة هي عاصمة الديار المصرية كلها ، فالاستيلاء عليها يستتبع حتماً الاستيلاء على مصر كلها ، وأضاف إلى هذا قوله : « إذا أنت أردت قتل الأفعى فاضربها على رأسها » ؛ واحتدم النقاش ، وانتهى باعراض الملك عن رأى قواده ، وأخذ به رأى أخيه ، وتقرر بذلك مسير الجيش الفرنسي جنوباً نحو القاهرة ، فكان هذا القرار حلقة جديدة في سلسلة الأخطاء التي انتهت بفشل الحملة .

إما المعسكر المصري فقد اضطرب اضطراباً شديداً لإنسحاب حامية دمياط وفوار أهلها ، ووقعها في يد الغدق . وكان السلطان الملك الصالح معسكراً بأشوم طنح

بالمريض يشتد به يوماً بعد يوم، ولكنه مع هذا لم يفقد شجاعته، بل قرر أن يتراجع مع جيشه جنوباً إلى مدينة المنصورة لأنها تمتاز بموقع حصين، فالنيل يحيطها غرباً، وبحر أشموم طناح يفصل بينها وبين قوى الفرنسيين في الشمال، وبدأ الجند المصريون في تحصين المنصورة فأصلحوا السور الذي كان يحيط بها وستره بالستائر وقدمت الشواني المصرية بالعدد الكاملة والزجالة، وجاءت الغزاة والرجال من غوام الناس الذين يريدون الجهاد من كل النواحي، ووصلت عربان كثيرة جداً، وأخذوا في الغارة على الفرنج ومناوشتهم، وأخذ هؤلاء المجاهدون والعربان يهاجمون معسكرات الفرنسيين حتى أقصوا مضاجعهم، فلم يكن يمر يوم دون أن يعودوا بعدد من الأسرى.

وفي ليلة الاثنين النصف من شعبان سنة ٦٤٧ (٢٢ نوفمبر سنة ١٢٤٩) مات السلطان الملك الصالح فكانت الطامة الكبرى، لأن الجند لو علموا بموته لتفرق شملهم وضعفت روحهم المعنوية، ولكن القدر هياً لمصر في تلك الساعة العصبية امرأة حازمة مدبرة هي شجرة الدر زوجة الملك الصالح، فقد أخفت عن الجميع خبر موت السلطان وأمرت بحمل جثته سراً في حراقة إلى قلعة الروضة، وعهدت للأمير فخر الدين بقيادة الجيش، وكان الأطباء يدخلون كالعادة إلى حجرة السلطان كل يوم وكأنهم يعودونه، كما كانت الأوراق الرسمية تدخل إلى نفس الغرفة وتخرج ممهورة بامضاء السلطان وعلامته بخط يشبه خطه كل الشبه.

وأرسلت الرسل إلى الملك المعظم تورانشاه بن الصالح - وكان مقبلاً في حصن كيفا - لاستدعائه إلى مصر، وبهذه الإجراءات السريعة الحكيمة أنقذت مصر من أزماتها، وسارت الأمور سيراً طينعياً.

ووصلت أخبار موت السلطان - رغم كتمانها - إلى الفرنسيين في دمياط، فانتهزوا الفرصة وبدأوا زحفهم نحو الجنوب حتى وصلوا إلى المنصورة، فعسكروا شمال بحر أشموم، وأصبح هذا البحر حانجرأ بين معسكرهم ومعسكر المسلمين، وبدأ كل من الفريقين يستعد للمعركة الحاسمة.

أما الفرنج فقد بدأوا يحصنون معسكرهم فحفروا حوله — كما دأبهم — خندقاً وأقاموا سوراً وستره بالسناثر، ونصبوا المحانيق، وأتت شوانهم فوقفت بأزائهم في النيل. وأما المصريون فكانوا مطمئنين إلى مدينتهم وحصانة موقعهم، فأخذوا يناوشون الفرنج ويتحيلون في اختطافهم وأسرههم، وكانوا يفتنون في مناشاتهم ويأتون فيها بكل طريف، وقد روى بعض المؤرخين أن جندياً مصرياً قور بطيخة وحملها على رأسه وغطس في الماء حتى حاذى الفرنج، فظنه بعضهم بطيخة ونزل لأخذها، فسطره المصري بسيفه وحمله إلى معسكر المسلمين.

ورأى ملك الفرنسيين أنه لا يستطيع الغلبة على المصريين إلا إذا التحم معهم في معركة ولا سبيل إلى هذا وبحر أشموم يفصل بينه وبينهم، ففكر في بناء جسر على هذا البحر. ليعبر عليه جنوده إلى البر الآخر، وصدرت الأوامر بأقامة هذا الجسر، ولكن الفرنسيين لم يكادوا يتمون بضعة أمتار من الجسر حتى تساقط عليهم وأبل من قذائف المسلمين ردهم على أعقابهم، فرأى الملك أن يبنى برجين زودهما بالقذائف والقاذفين لحماية العمال الذين يعملون في البحر، وعاد الفرنج إلى عملهم يبغون إتمام الجسر للعبور عليه. ولكن المسلمين استطاعوا بمهارتهم الحربية وخطتهم الموفقة أن يفسدوا على أعدائهم عملهم، فكان الفرنج كلما أتموا من جسرهم متراً هدم المسلمون أمتاراً أمامه في شاطئهم المقابل، فأتسع المجرى من جديد، يقول جوافيل — مؤرخ الحملة وأحد فرسانها: « فكانوا يفسدون علينا في يوم واحد ما كنا ننجزه في أسابيع ثلاثة ».

وإلى هذا كله استعد المصريون بمجانيقهم ومقاليعهم، فكانوا يمحطرون الفرنسيين وأبراجهم بقذائف من النار اليونانية التي أنزلت الرعب في أفئدتهم ونالت من شجاعتهم كل منال، ولبس أروع من وصف جوافيل لهذا الدعر الذي استولى على الفرنسيين أمام هذا السلاح الخطر حين يقول:

وقال ولتر دي كوريل (Walter de Cureil): « أيها السادة، نحن في خطر داهم لأن العدو لو صوب النار نحو أبراجنا وبقينا نحن في أماكننا لأننا الموت من كل مكان، ولو أننا غادرنا مراكزنا التي استولينا عليها للحقنا العار، فلانقذ لنا من هذا الخطر

الدهام إلا الله . . . فنصيح حتى اليكم أن نخر سجداً — كلما صوبوا هذه النار حولنا — لنبتل إلى الله سبحانه وتعالى أن ينجينا من هذا الخطر ؛ ولم يكن الملك لويس نفسه أقل جزعاً من رجاله ، يقول جوانفيل واصفاً الرعب الذي استحوذ على الملك : « وكانت النار ترسل في انطلاقتها الأضواء الباهرة التي تملأ رحاب المعسكر فيبدو وكأننا في وضوح النهار ، ولقد صوب العدو النار نحونا هذه الليلة ثلاث مرات ، كما أطلقوها من قسبهم أربع مرات ، وكان الملك القديس كلما سمع أن النار الأغريقية قد صوبت نحونا انتصب واقفاً على سريره ورفع يديه إلى السماء وابتدأ الصلاة وعيونه مضمضة بالدموع وهو يقول : أيها الإله الطيب أحفظ لي شعبي » .

يتضح من هذه الحوادث والأقوال أن الغلبة كانت للمصريين في أول المعركة ولو سارت الأمور سيراً طبيعياً لم لهم النصر النهائي ، ولكن خائناً من البدو دل الفرنسيين في ذلك الحين على مخاضة في بحر أشموم — يستطيع الفرسان عبورها على خيولهم — نظير مبلغ من المال .

وفرّح الفرنسيون بهذا الكشف ، ووضع الملك لويس خطة جديدة للمعركة ، وتلخص هذه الخطة في أن يعبر الكونت أرتوا بفرقة الفرسان من هذه المخاضة ، فإذا وصل إلى الشاطئ الذي يعسكر فيه المسلمون اشتبك معهم في قتال مؤقت ليشتغلهم عن مهاجمة الفرنسيين الذين يقيمون الحرس إلى أن يتموه ، فإذا تم بناء الحرس عبر عليه لويس ببقية جيشه ، وانضم إلى فرسان الكونت أرتوا ، وانقضوا جميعاً على جيش المسلمين .

كانت الخطة كما ترى محكمة وخطيرة ، ولو أنها نفذت كما وضعت لقضى الفرنسيون على الجيش المصري قضاء مبرماً ، ولكن تهور الكونت أرتوا كان السبب في فشلها . عبر أرتوا بفرسانه هذه المخاضة في الرابع أو الخامس من ذي القعدة سنة ٦٤٧ (فبراير سنة ١٢٥٠) وانقض على معسكر المسلمين فجأة فشنت شملهم لأنهم لم يكونوا مستعدين للقتال ، إذ لم يخطر على بالهم أن يهاجموا من هذه الناحية ، وكان قائد الجيش الأمير فخر الدين في الجاهم عندما علم بهجوم الفرنج على معسكره ، فخرج مشدوهاً ، وركب فرسه دون أن يتخذ للدفاع عدته ، فداهمه فرسان الفرنج ، ففرق عنه جنده ، وتكاثر

— ٣٦ —

عليه الرماح والسيوف حتى خر صريعاً ، وانقلبت بهذا هزيمة الفرنسيين إلى نصر باهر ، وفرح أرتوا بهذا النصر السريع ، وملكه حماس الشباب فلم يقف عند نهاية الجسر لحماية العاملين فيه — كما أمره أخوه — وإنما اندفع بفرسانه إلى المنصورة ودخلها ، وتقدم حتى وصل إلى قصر السلطان بها . وكاد النصر النهائي يتم للفرنسيين لولا أن صمدت لهم فرقة المماليك البحرية بقيادة ركن الدين بيبرس ، وحملت على الفرنسيين حملة عنيفة حتى رقتهم عن القصر ، فلما فروا راجعين تعقبهم بالسيوف والدبابيس ، وأقام الأهالي المتاريس في الطرقات ، واشتبك الفريقان في قتال عنيف في شوارع المدينة وأزقتها ، واتخذ السكان حصوناً من منازلهم يلقون من نوافذها بالقذائف والحجارة على الفرنسيين . وانتهت المعركة أخيراً بالقضاء على فرقة الفرسان قضاء مبرماً ، وكان في مقدمة الضحايا الكونت أرتوا قائدها .

وكان الفرنسيون — أثناء هذه المعركة — يجدون ويبدلون كل الجهد لإتمام الجسر حتى يتمكنوا من العبور عليه والإنضمام إلى فرسانهم ، ولكنهم لم يكادوا يشرفون على إتمامه . حتى وصلتهم أخبار الهزيمة التي نزلت بجنودهم ، فنال هذا الخبر من شجاعتهم وفقدوا قوتهم المعنوية ، فكانوا يلقون بأنفسهم إلى النيل ييغون العودة إلى معسكرهم . وبهذه الهزيمة عاد الفريقان إلى ما كانا عليه . كل منهما على شاطئ ، والبحر الصغير يفصل بينهما .

وبعد أيام قليلة وصل الملك المعظم تورانشاه إلى مصر ، واستقر في قصر السلطنة بالمنصورة يوم الثلاثاء تاسع عشر ذى القعدة سنة ٦٤٧ (فبراير ١٢٥٠) . وفرح المصريون بسلطانهم الجديد وبدأوا يستعيدون ثقتهم بأنفسهم .

ولما تورانشاه إلى الحيلة التي سبق أن لجأ إليها المصريون في عهد جده الملك الكامل عندما نزلت بنفس المكان جيوش جان دي برين ، فأمر بأن تصنع سفن بالمنصورة وحملت هذه السفن مفصلة على الجبال إلى بحر المحلة حيث أعيد تركيبها ، وملائت بالحاربن وسارت شمالاً ، فلما وفدت سفن الفرنج تحمل الميرة من دنياط خرجت عليها هذه السفن ، فأخذت مراكب الفرنج اخذاً وبيلاً — وكانت اثنتين وخمسين مركباً —

وقتل منها وأسرنحو ألف أفرنجي ، وغنم سائر ما فيها من الأرزاد والأقوات ، وحملت الأسرى إلى العسكر ، فانقطع المدد من دمياط عن الفرنج ، ووقع الغلاء عندهم وصاروا محصورين لا يطيقون المقام ولا يقدرّون على الذهاب .

وأشدت الضائقة بالفرنسيين لانقطاع الميرة من دمياط ، فأرسل الملك لويس إلى السلطان يطلب الصلح ويعرض عليه أن يتنازل عن دمياط مقابل بيت المقدس ، ولكن السلطان رفض هذا الطلب ، فلم يجد لويس بداً من الاستمرار في المقاومة حتى يستطيع إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، فأشعل النار في أسلحته وعتاده ، ورحل بجيشه — ليلة الأربعاء لثلاث مضين من المحرم سنة ٦٤٨ (أبريل ١٢٥٠) — متجهاً إلى دمياط ، ولم يكده يصل إلى فارسكور حتى كانت جيوش المصريين قد لحقت به وانقضت على جيشه انقضاض الصاعقة فقصت على معظمه ، حتى قيل إن من قتل من فرسان الفرنسيين كان أكثر من عشرة آلاف ، كما أسرن الخيالة والرجالة والصناع ما يناهز مائة ألف ، وارتقى الملك لويس وأمراء جيشه تلا هناك وسألوا الأمان فأمنوا ، وأسروا لويس وقواده وحمل إلى المنصورة حيث سجن بدار ابن لقمان التي لا تزال بقاياها قائمة حتى اليوم ، وكل بحراسته الطواشي صبيح .

ولم يكن المعظم تورانشاه كآبيه ثباتاً واتزاناً وحكمة ، بل كان شاباً أهوج ، فلم يقدر لزوج أبيه شجر الدر تدبيرها ، ولا للمالِك البحرية جهدهم ، بل أخذ يهدد شجر الدر ويطلبها بمال أبيه ، كما أبعد ممالك أبيه ، وقرب اليه حاشيته التي وصلت معه من كيفا وصار إذا سكر جمع الشمع وضرب رؤوسها بسيفه حتى تنقطع ويقول : « هكذا أفعل بالبحرية » ، فتآمر عليه هؤلاء الممالك البحرية واقتحموا عليه البرج الخشبي الذي كان يقيم به في فارسكور ، فأدرك الشرفى عيونهم ، وصعد إلى أعلا البرج ، فرموه بالنشاب ، وأطلقوا النار في البرج ، فألقى بنفسه من أعلاه وجرى نحو النيل فلحقوا به وقتلوه ، وكان ذلك في التاسع والعشرين من المحرم سنة ٦٤٨ (مايو ١٢٥٠) .

وهكذا كاد المصريون يفقدون بهذه الفعلة النصر الباهر الذي أحرزوه ولم يمحض عليه غير خمسة وعشرين يوماً ، ولكن الممالك سرعان ما تداركوا الموقف فأجمعوا ، على



الملك لويس في الأسر بعد هزيمته

إقامة شجر الدر ملكة على مصر، فكان حدثاً فذاً في تاريخ العالم الإسلامي كله؛ كما عينوا الأمير عز الدين أيبك قائداً أعلى للجيش .

وبدأت المفاوضات بين الملك لويس وبين المصريين، وتولاها عنهم الأمير حسام الدين بن أبي علي - نائب السلطنة في عهد الملك الصالح - وتم الاتفاق أخيراً على إطلاق سراح الملك وجميع الأسرى على أن يخلوا دمياط وأن يدفعوا أربعة آلاف دينار فدية للملك، يدفعون نصفها قبل أن يطلق سراحه والنصف الآخر بعد وصولهم إلى عكا . وجمعت الملكة - وكانت مقيمة في دمياط - نصف المبلغ المطلوب، فأطلق المصريون سراح الملك. ودخل المسلمون ثانية إلى دمياط، ورفعوا عليها العلم المصري يوم الجمعة الثالث من صفر، بعد أن ظلت في أيدي الفرنج أحد عشر شهراً وتسعة أيام . وهكذا أقلمت فلول الحملة إلى عكا بعد أن ودعها شاعر مصر جمال الدين بن مطروح بقصيدته المشهورة التي يقول فيها :

قل للفرسيس. إذا جثته	مقال نصح عن قول فصيح
آجرك الله على ما جرى	من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصرأ تبغى ملكها	تحسب أن الزمر ياطبل ريع
فساقك الحين إلى أدهم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفا لا يرى منهم	إلا قتيل أو أسير جريح
وفقك الله لأمثالها	لعل عيسى منكم يستريح
إن كان باباكم بلدا راضيا	فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم إن أضمرنا عودة	لأخذ ثار أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشي صبيح

دمياط في العصر المملوكي:

١ - تخريب مدينة دمياط

وتتابعت الحوادث وعرش مصر مثار نزاع عنيف بين الأيوبيين والمماليك، فخشي المماليك أن ينهز الفرنج فرصة هذا النزاع فينقضوا على دمياط ثانية، فاتفقوا على تخريبها، وأرسلوا إليها فرقة من الحجارين والفعلة، «فوقع الهدم في أسوارها يوم الاثنين الثامن عشر من شعبان سنة ٦٤٨ حتى خربت كلها ومحييت آثارها ولم يبق منها سوى الجامع». وهكذا كانت حملة لويس شؤماً على دمياط، ففي أوائلها غادرها أهلها جميعاً، وفي أعقابها - وبعد نحو ستة أشهر من خروج الفرنسيين - هدمت المدينة جميعها. بأسوارها وقلاعها ومنازلها وقصورها، ولم يبق منها - كما يذكر المؤرخون - سوى جامعها وهو الجامع المهدم القديم الذي يعرف حتى الآن في دمياط. باسم جامع أبي المعاطي القديم أو جامع الفتح.

٢ - قيام دمياط الجديدة

ويقول المقرئ أن بعض فقراء الناس سكنوا بعد ذلك في أخصاص على النيل قبلى المدينة الجديدة، وسموا هذا المكان (المنشية)، ولعل هذا هو الحى المعروف حتى اليوم في دمياط بهذا الاسم.. ولم تلبث هذه المنشية حتى كبرت ونمت وأصبحت - كما يقول المقرئ - بلدة كبيرة ذات أسواق وحمامات وجوامع ومدارس ومساجد، ودورها تشرع على النيل الأعظم ومن ورائها البساتين، وهى أحسن بلاد الله منظراً، تلك هى دمياط الجديدة، فما قصتها في العصور التالية؟

٣ - دمياط في عهدي المعز أيك والمظفر قطز

ويبدو أن هذا النمو كان سريعاً ، فوقع دمياط موقع ممتاز من الناحيتين الجغرافية والاستراتيجية ، فهو يتطلب بالضرورة أن تقوم فيه مدينة ، ومدينة كبيرة ؛ يؤيد رأينا هذا الأخبار المتناثرة عن اهتمام سلاطين المماليك الأول بدمياط الجديدة في السنوات التالية مباشرة لهدم المدينة القديمة .

هذه الأخبار تروى أن الملك المعز أيك - وهو الذي ولي عرش مصر بعد شتجر الدر - قد أقطع دمياط في سنة ٦٥٢ - أي بعد هدم المدينة القديمة بأربع سنوات فقط - إلى الأمير علاء الدين أيد غدني العزيزي ، ثم تنصب على أن ارتفاعها - أي إيراداتها - كان يومئذ ثلاثين ألف دينار .

وتروى هذه الأخبار أيضاً أن السلطان قطز الذي ولي بعد المعز أيك قد أرسل في سنة ٦٥٧ (١٢٥٩) المنصورين أيك وأخاه وأمه إلى دمياط ، واعتقلهم في برج عمره هناك ، وسماه برج السلسلة ، وقد يفهم من هذا الخبر لأول وهلة أن قطز بنى في دمياط برجاً جديداً ، ولكن تسمية هذا البرج ببرج السلسلة تجعلنا نجزم بأنه هو نفسه برج السلسلة القديم ، وأن المماليك الذين هدموا دمياط قد أبقوا هذا البرج ، وأن الذي فعله قطز إنما هو تعميم البرج ، أي ترميمه وإصلاحه .

٤ - في عهد الظاهر بيبرس

وقتل قطز بعد انتصاره على التتار في وقعة عين جالوت ، وولى عرش مصر الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدالي ، ويعتبر بيبرس المؤسس الحقيقي لدولة المماليك في مصر ، فقد طالت مدة حكمه ، وقد بذل الجهود القوية للتمكين لهذه الدولة ، ومن وسائله لهذا : العناية الفائقة بتحصين مصر وثغورها ، وقد نالت دمياط نصيبها الموفور من هذه العناية .

أدرك بيبرس أن دمياط الجديدة لا تجمها أسوار أو حصون ، كما أدرك أن برج السلسلة مع قوته ومناعته قد يقع في أيدي العدو ، ولهذا لجأ إلى طريقة فعالة لحماية مدخل النيل عند دمياط ، ففي السنة الثانية من حكمه وهي سنة ٦٥٩ (١٢٦١) « أمر بردم فم بحر دمياط ، فخرج جماعة الحجارين وألقوا فيه القراييص حتى يضيق وتمتنع السفن... الكبار من دخوله » .

ثم لاحظ بيبرس أن العناية بالأساطيل قد فترت بعد خروج الفرنسيين من مصر ؛ وثغور مصر - وخاصة دمياط والأسكندرية - لا يمكن أن يحميها إلا الأساطيل ، « فأنشأ عدة شوان بشغرى دمياط والأسكندرية ، ونزل بنفسه إلى دار الصناعة ، ورتب ما يجب ترتيبه ، وتكامل عنده ببر مصر ما ينيف على أربعين قطعة وعدة كثيرة من الخراييق والطرائد ونحوها » .

وفي شوال سنة ٦٦١ خرج بيبرس وزار الأسكندرية وأشرف على أسوارها وحصونها ، وفي السنة التالية ٦٦٢ (١٢٦٤) خرج إلى دمياط فزارها ، وأمر بالعناية بأبراجها وأسطولها ، وأقام بها - كما أقام بغيرها من الثغور - حامية كبيرة العدد للدفاع عنها . واستعادت دمياط مكانتها شيئاً فشيئاً ، وعاد إليها أسطولها ، وكان مقدم أسطول دمياط - أى قائده أو رئيسه - واحداً من كبار رؤساء الأسطول المصرى العام ، ومن دمياط بدأت تخرج الغارات البحرية - كما كان العهد في العصرين الفاطمى والأيوبي - ففي عهد بيبرس ، وفي سنة ٦٦٩ (١٢٧٠) خرج الأسطول المصرى من دمياط يريد غزو جزيرة قبرص ، ولكنه لم يوفق ، وأسر كثير من جنده وقواده - ومن بينهم مقدم أسطول دمياط - وبقوا في الأسر إلى أن تحيل بيبرس في استنقاذهم في سنة ٦٧٣ ؛ وعنى بيبرس بشؤون دمياط المدنية عنايته بشؤونها الحربية ، فأمر بعمارة الجسر (الطريق الزراعى) الذى يصل بينها وبين القاهرة .

هـ - دمياط في أواخر القرن السابع الهجري

الشيخ فاتح الأسمر

وظلت دمياط الحديدية تنمو شيئاً فشيئاً ، وقصدها العلماء والصوفية من كل حدب
 وخرج علمائها إلى الأقطار ، فمن وفد عليها في أواخر القرن السابع الهجري (١٣م)
 الشيخ فاتح بن عثمان الأسمر التكروري ، قدم إليها من مراكش حوالي سنة ٨٦٧٨ هـ
 — أي بعد إنشاء المدينة الحديدية بنحو خمس وعشرين سنة — فأقام بها مدة ، ثم نزع
 عنها إلى تونة فلبث بها سبع سنين ، ثم عاد إلى دمياط فأقام في جامعها القديم الذي بقي
 بعد هدم المدينة القديمة ، وجعل مقره في وكر بأسفل منارته . وكان هذا الجامع
 — منهدمت دمياط — مهتماً مهملاً لا يفتح إلا في يوم الجمعة ، فاعتنى به الشيخ
 فاتح ، ورم جدرانها ، ونظفه بنفسه حتى طرد الطوط الذي كان يقيم بسقوفه ، وساق
 الماء إلى صهاريجها ، وبلط صحنه ، وسبك سطحه بالجبس ، ورتب فيه إماماً يصلي
 بالناس الصلوات الخمس ، وأقام هو في بيت الخطابة مواظباً على قراءة الأوراد وتلاوة
 القرآن ، وكان يقول : « لو علمت بدمياط مكاناً أفضل من الجامع لأقمت به ، ولو
 علمت في الأرض بلدًا يكون فيه الفقير أخلاً من دمياط لرحلت إليه وأقمت به » ، وكان
 هذا الشيخ على خلق عظيم ، فكان يحب الفقر ويتواضع مع الفقراء ، ويتعاطف على
 العطاء والأغنياء ، وإذا اجتمع عنده الناس قدم الفقير على الغني ، وإذا مضى الفقير من
 عنده سار معه وشيعه عدة خطوات وهو حاف ، ووقف ينظره حتى يتوارى عنه ، وكان يكرم
 الأيتام ويشفق على الضعفاء والأرامل ، ويبذل شفاعته في قضاء حوائج الخالص
 والعام من غير أن يمل ولا يتبرم بكثرة ذلك . تزوج في آخر حياته بامرأتين ، وكان يقرأ
 في المصحف ويطلع الكتب ، وإنما لم يره أحد بخط يده شيئاً . توفي ليلة الثامن
 من شهر ربيع الآخر سنة ٦٩٥ (فبراير ١٢٩٦) . وخلف ولدين ليس لهما قوت ليلة ، وعليه
 دين قدره ألفا درهم ، ودفن في قبره بجوار الجامع القديم .

ومنذ ذلك الحين عرف ذلك الجامع بجامع الفتح ، وهو تحريف للفظ فاتح — اسم الشيخ —

— ٤٤ —

ثم ظن الناس تخريباً من هذا الاسم المحرف أن هذا الجامع بنى زمن الفتح الإسلامى ، وهو ظن خاطئ يعوزه الدليل التاريخى المادى ، وينفيه ما ذكره المقرئى من أنه لما زار دمياط فى أوائل القرن التاسع الهجرى شاهد بنفسه نقشاً بالقلم الكوفى على باب هذا الجامع يثبت أنه عمر بعد سنة خمسمائة من الهجرة ، أى أنه يرجع إلى العصر الفاطمى ، وهو قول تؤيده الدراسات الأثرية للنقوش والكتابات والخاروف الحشبية التى كانت تزين جدران هذا الجامع حتى وقت قريب ، والتى نقلت إلى دار الآثار العربية بالقاهرة ، فهذه النقوش والكتابات جميعاً من الطراز الفاطمى .

وهذا الجامع يعرف الآن أيضاً باسم جامع أبى المعاطى القديم ، كما يعرف ضريح الشيخ فاتح باسم جامع أبى المعاطى الجديد ، نسبة للشيخ فاتح ، فقد عرف الرجل — لكثرة عطائه — بهذه الكنية (أبو المعاطى) ، ولقد غلبت هذه الكنية على الشيخ واسمه ، فأهل دمياط الآن لا يعرفون من هو فاتح ، وإنما يعرفون تماماً من هو (سبلدى أبو المعاطى) .

٣ - دمياط فى القرن الثامن الهجرى

وصف ابن بطوطة لها

وبعد نحو خمس وسبعين سنة من عدم دمياط القديمة كانت دمياط الجديدة قد نمت واكتمل نموها ، وامتدت رحابها ، وكثرت مبانيها ، ودبت الحياة فى أرجائها ، فقد زارها الرحالة المشهور ابن بطوطة فى سنة ٧٢٥ (١٣٢٥) ووصفها وضفاً رائعاً ، فقال إنها : « مدينة فنيحة الأقطار ، متنوعة الثمار ، عجبية الترتيب ، آخذة من كل حسن بنصيب » ، ووصف منازلها بقوله : « ومدينة دمياط على شاطئ النيل ، وأهل الدور الموالية له يستقون منه الماء بالدلاء ، وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها إلى النيل » .

— ٤٠ —

وقد عرفت دمياط — لأهميتها — في ذلك العهد نظام جوارات السفر : فقد ذكر ابن بطوطة أنه « إذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج عنها إلا بطابع الوالي ، فن كان من الناس معتبراً طبع له في قطعة كأغد يستظهر به لحراس بابها ، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به » .

وهذا النص هام من ناحية أخرى ، فهو ينص على أن المدينة كان لها باب عليه حراس ، ولا يمكن أن يكون للمدينة باب إلا إذا كان لها سور ، فهل بني حول المدينة الجديدة سور ؟ ومن الذي بناه ومتى بناه ؟ هذه أسئلة لا نجد لها جواباً عند مؤرخي العصر المملوكي .

وقد زار ابن بطوطة معالم المدينة المشهورة في ذلك الحين ، ووصفها في رحلته ، فما زاره البرزخ ، قال : « وبخارجها جزيرة بين البحرين والنيل ، تسمى البرزخ ، (وهي رأس البرالحالية) ، بها مسجد وزاوية ، لقيت بها شيخها المعروف بابن قفل ، وحضرت عنده ليلة جمعة ومعه جماعة من الفقهاء الفضلاء المتعبدين الأخيار ، قطعوا ليلتهم صلاة وقراءة وذكر » .

وهذا الوصف يعطينا أيضاً صورة واضحة للحياة العلمية الدينية التي كانت مزدهرة في المدينة في ذلك الحين ، والتي لا تزال دمياط تحتفظ بها وتشتهر حتى اليوم .

وزار ابن بطوطة — فيما زار أثناء مقامه بالمدينة — زاوية الشيخ جمال الدين الساوي ، وقال إنه : « قدوة الطائفة المعروفة بالقرنلرية (أو القلندرية) وهم الذين يخلقون لحاهم وحواجبهم » .

والشيخ جمال الدين الساوي هو غير جمال الدين شيخ المدفون بدمياط أيضاً — كما يظن البعض — ، ثابن شبة — كما أرجح — مجاهد من الذين جاهدوا ضد حملة أويس ، وقد ائند به العمر إلى عصر الظاهر بيبرس .

وزار ابن بطوطة ضريح شطا ، قال : « وبخارج دمياط المزار المعروف بشطا ، وهو ظاهر البركة ، يقصده أهل الديار المصرية ، وله أيام في السنة معلومة المالك » .

وكانت البساتين تحيط بدمياط ، وخاصة في قرية المنية التي لا تزال تعرف بهذا الاسم حتى الآن ، وقد زارها ابن بطوطة ووصفها بقوله : « وبخارجها أيضاً بين بساتينها موضع يعرف بالمنية ، فيه شيخ من الفضلاء يعرف بابن النعمان ، قصدت زاويته وبت عنده » وذكر ابن بطوطة أيضاً أن والى دمياط — وقت مقامه بها — كان يسمى المحسنى ، كما ذكر أنه كان من ذوي الإحسان والفضل ، وأنه بنى بدمياط مدرسة على شاطئ النيل ، وقد أقام ابن بطوطة بهذه المدرسة طيلة الأيام التي قضاها بدمياط . وقد غادر ابن بطوطة دمياط إلى فارسكور دون أن يعلم والى برحيله ، فأرسل وراءه فارساً من رجاله قدم له هبة مالية يستعين بها على سفره .

هذا مجمل وصف ابن بطوطة لدمياط وضواحيها في الربع الأول من القرن الثامن الهجرى (١١٤م) ، وهو وصف قيم نادر لأنه يبين في وضوح كيف نمت المدينة وازدهرت واتسعت أطرافها ، وكثرت مبانيها ودورها ، ولأنه ينص على أن بيوتها كانت تطل في معظمها على النيل ، وعلى كثرة ما بها من مدارس وزوايا ، وعلى ازدهار الحياة العلمية والدينية بها ، كما أنه يشير إلى كثير من معالم المدينة ، وبعضها باق حتى اليوم ، وبعضها اختفى مع الأيام ، فهو نص هام للمؤرخ والطبوغرافى الذى يريد أن يرسم صورة واضحة لدمياط في القرن الثامن الهجرى .

هذه هي دمياط في أوائل القرن الثامن الهجرى قد استعادت مكانتها ، وأصبحت مزدهرة عامرة بالدور والقصور والمساجد والمدارس والمتاجر ، ولم تقف عند هذا الحد بل اتخذت طريقها نحو التقدم حتى غدت في النصف الثانى من هذا القرن ميناء مصر الأولى ، فقد تفوقت على الإسكندرية ، وورثتها في مكانتها ، وتفصيل ذلك أن روح الحروب الصليبية — بعد طرد الصليبيين نهائياً من عكا آخر مدنها في الشام في عهد الأشرف خليل بن قلاوون — قد ضعفت شيئاً ما ، ولكنها لم تخمد تماماً ، وقد حاول الأوروبيون تجديد هذه الحروب في القرن الثامن ، ففي سنة ٧٦٧ أغار على الإسكندرية أسطول ضخم من قبرص ، واستطاع القبارصة أن ينزلوا إلى البر ويستولوا على المدينة ،

وقد لبثوا بها أياماً قصوها في تخريب المدينة تخریباً تاماً ، ثم عادوا محملين بالأسلاب والقبائم والأسرى.

. هذه الحملة هزت كيان الاسكندرية هزاً عنيفاً، وأسرت العدد الكبير من سكانها، وشتتت عدداً أكبر ، فضعت شأن المدينة منذ ذلك الحين ضعفاً شاملاً ، ولم تعد لها مكانتها الأولى ، وإنما أصبحت دمياط هي الميناء المصرية الأولى ، وقد دفعها هذا العامل الجديد إلى النمو والازدهار دفعاً قوياً.

٧ - في القرن التاسع الهجرى

دمياط ميناء مصر الأولى

ولم يكد يبدأ القرن التاسع الهجرى (١٥م). حتى غدت دمياط المدينة المصرية الثانية بعد العاصمة، وعادت ثانية المقر الذى تخرج منه أساطيل المصريين للغزو في البحر الأبيض المتوسط ، ففي سنة ٨٢٥ (١٤٢٢-١٤٢٣) - في عهد الأشرف برسبای - خرجت أساطيل مصر من دمياط للإغارة على جزيرة قبرص ، والدافع الأكبر لإرسال هذه الحملات هو الانتقام من البارصة لا فعاهو بالاسكندرية في عهد الأشرف شعبان ، ولكن السبب المباشر يتصل أيضاً بدمياط ؛ يروى صالح بن يحيى أن « موجب ابتداء اخان مع صاحب قبرص أن شخصاً من تجار دمياط يسمى أحمد بن الهميم كان له مركب كبير قد أوسقه من طرابلس الشام صابوناً وبضائع بمال كثير ، فلما وصل إلى فم دمياط صادفه مركب من حرامية الفرنج من طائفة البسقاوية ، فأخذ مركب ابن الهميم وتوجه به إلى قبرص ».

وقد أرسل برسبای ثلاث حملات لفتح قبرص : الأولى في سنة ٨٢٦ (١٤٢٤) والثانية في سنة ٩٢٩ (١٤٢٥) ، والثالثة في سنة ٨٣٠ (١٤٢٦) ، وقد خرجت الحملتان الأولى والثانية من دمياط ، أما الثالثة فقد خرجت من الاسكندرية ؛ وقد نجحت الحملة الثالثة في الاستيلاء على جزيرة قبرص. وضمها للملك مصر، وعادت أساطيلها

إلى دمياط في شوال سنة ٨٣٠ (أغسطس ١٨٢٦) ثم انحدرت منها إلى بولاق بحملة بالأسلاب والغنائم والأسرى، وفي مقدمتهم ملك قبرص نفسه (الملك جانوس) وقائد قوات الجزيرة. واحتفلت القاهرة باستقبال رجال الأسطول المنتصرين، وخرج أهلها جميعاً للاحتفال بمواكب النصر التي شقت الشوارع وفي مقدمتها الملك الأسير وقائده يمتطيان، بغلين، وأمامهما تاج قبرص وأعلامها، ويتبعهما ألوف الأسرى.

وإبان قيام الحملة الثانية بالإغارة على قبرص: أمر برسباي بتشيد برج عظيم في مدينة الطينة القرية من دمياط، وشحنه بالمقاتلين لمراقبة سفن الأعداء إذا حاولت تهديد السواحل المصرية.

٨ - زيارة المقرئ لدمياط ووصفه لها

في القرن التاسع الهجري.

وقد زار دمياط في النصف الأول من القرن التاسع الهجري المؤرخ المصري الكبير تقي الدين المقرئ، وأرخ لها، ووصف الكثير من معالمها في كتابه الخطوط، وقال: «أحسن بلاد الله منظراً»، ثم قال أيضاً وقد: «أخبرني الأمير الوزير المشير الاستادار يلغا السالمى - رحمه الله - أنه لم ير في البلاد التي سلكها من سمرقند إلى مصر أحسن من دمياط هذه، فظننت أنه يغلو في مدحها، إلى أن شاهدها فإذا هي أحسن بلد وأنزه»، ثم أثبت في كتابه السالف الذكر قصيدة قالها في مدحها، تقتطف هنا معظم أبياتها لما حوته من وصف نادر لدمياط ومعالمها الهامة في ذلك العصر، قال:

سقى عهد دمياط وحياه من عهد	فقد زادني ذكراه، وجداً على وجله.
ولا زالت الأنواء تسقى صحابها	دياراً حكمت من حسنها جنة الخلد
فيا حسن هاتيك الديار وطيبها	فكم قد حوت حسناً يحل عن العد
فلله أنهار تحف بروضها لكا	لمرهف المصفول أو صفحة الخلد
وبشتينها الريان يحكى مبتها	تبدل من وصل الأجرة بالصد

ولاسيما تلك النواعير لأنها
أطارحها شجوى، وصارت كأنما
وفى البرك الغراء يا حسن نوفر
سما من البلور قىها كواكب
وفى شاطئ النيل المقدس نزهة
وفى مرج البحرين جم عجائب
كأن التقاء النيل بالبحر إذ غدا
وقد نزلنا للحرب واحتدم اللقاء
فظلا كما باتا، وما برحا كما
فكم قد مضى لى من أفانين لذة
وكم قد نعمنا فى البساتين برهة
وفى البرزخ المأنوس كم لى خلوة
هناك ترى عين البصيرة ما ترى
فيارب هيء لى بفضلك عودة

بجدد حزن الواله المدنف الفرد
تطارح شكواها بل الذى أبدى
حلا، وغدا بالزهو يسطو على الورد
عجيبة صبغ اللون بحكمة التضد
تعيد شباب الشيب فى عيشه الرغد
تلوح وتبدو من قريب ومن بعد
مليكان سارا فى الجحافل من جند
ولا طعن إلا بالثقف الملد
هما من جليل الخطب فى أعظم الجهد
بشاطها العذب الشبى لذى الورد
بعيش هنيء فى أمان وفى سجد
وعند شطا عن أيمن العلم الفرد
من الفضل والأفضال والخير والمجد
ومن بها فى غير بلوى ولا جهد

فالمقر يزي يشير فى هذه القصيدة إلى معالم المدينة وضواحيها الهامة التى زارها، وهى
البساتين ومرج البحرين والبرزخ وشطا، كما أنه نعم أثناء مقامه بها بجوها الصحو ورياحها
« التى تطرد الهم والأسى »، وسماها التى كالبلور، وشاطها الذى « يعيد شباب الشيب
فى عيشه الرغد »، وأعجب ببشنيها الريان، وهز عواطفه أصوات النواعير « التى تجدد
حزن الواله المدنف الفرد »، ثم أحس أخيراً أن نفسه لم تشبع من هذا الجمال،
فتمنى على الله - فى خاتمة قصيدته - أن ينهى له عودة إليها، وإنما « فى غير بلوى
ولاجهد ».



٩ - دمياط منفي السلاطين والامراء

وقد اتخذت دمياط في القرن التاسع صفة أخرى غير ما عرفنا ، فقد أصبحت منفي للأمراء المغضوب عليهم ، وسلاطين الماليك وأبناء السلاطين المخلوعين عن عروشهم ، يبعدون إليها ليسجنوا في أبراجها ، أو ليعيشوا فيها أحراراً أو مراقبين :

ففي منتصف القرن التاسع نفي إلى دمياط خليل بن الملك الناصر فرج بن برقوق ، فقصى بها المدة الأخيرة من حياته إلى أن وافته منيته بها في سنة ٨٥٨ ، فدفن بالقرب من قبر الشيخ فاتح الأسمر لمدة ثمانية أيام إلى أن سمح السلطان بنقل جثته ، فنقلت إلى القاهرة ، ودفنت بتربة جده الظاهر برقوق .

وفي سنة ٨٧٣ (١٤٦٨ - ١٤٦٩) استطاع السلطان الملك الأشرف قايتباي أن يرتقي عرش مصر بعد عزل السلطان الملك الظاهر تمر بغا ، وأبعد السلطان المعزول إلى دمياط معزلاً مكرماً ، سافر إليها في حراقة بطريق النيل ، فلما وصل إليها « سكن في أحسن دورها ، وكان يركب إلى صلاة الجمعة » ، وفي نهاية هذا العام فر تمر بغا من دمياط إلى الطينة ثم إلى غزة ، فأرسل قايتباي الجند خلفه ، فلحقوا به في غزة ، وقبضوا عليه ، وعادوا به إلى الإسكندرية ، فسمح له السلطان بالمقام فيها بعد أن اعتذر عن فعلته .

١٠ - الملك المنصور عثمان بن جقمق

يقيم في دمياط بعد عزله

وكان قد نفي إلى دمياط أيضاً - قبل تمر بغا - الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، فقد ولي السلطنة بعد وفاة أبيه جقمق ، غير أنه لم يلبث بها إلا أياماً ، ثم وثب به الأتابك إينال وخلفه على العرش ، ولقب بالملك الأشرف ، ونفي المنصور عثمان إلى الاسكندرية أولاً ، ثم نقل إلى دمياط فقصى بها سنوات طويلة ، ولم يحاول الفرار كصاحبه الظاهر تمر بغا ، وإنما اتصل بالعلماء وقضى بقية حياته يشغل بالعلم ، وحرص

« على الانعزال والمطالعة والتلاوة والصيام ، وصرف أوقاته في الطاعات ؛ وتحريه في نقل العلم ، وإعراضه عن التشاغل بأنواع الفروسية ومتعلقاتها مع تقدمه فيها » .
وقد عرف له سلاطين الماليك قدره ، فبالغوا في إكرامه ، وتركوا له الحرية الكاملة للإنتقال في الشغرومنه ، فقد سمح له قايتباي بزيارة القاهرة في صفر سنة ٨٧٤ (أغسطس ١٤٦٩) ، وكانت قدمته هذه ليسأل السلطان أن يسمح له بالحج ، فأذن له ، وخرج عثمان فحج « في أبهة تامة » ثم عاد فأقام بدمياط كما كان .
وفي ذى الحجة سنة ٨٨٠ احتفل المنصور عثمان في دمياط بختان أولاده احتفالا عظيما ، فبعث إليه قايتباي بالني دينار « بسبب احتياج المهم ، وتوجه إليه ابن رحاب المغني ، ومشى في الزفة ، وكان له مهم حافل » .
وقد اتخذ المنصور عثمان له حاشية من العلماء والأدباء ، فكانت داره بدمياط حافلة دائماً بمجالس العلم ، ومن اتصل به هناك الأديب المؤرخ محمد بن أبي بكر بن عمر القادري الجوهري الدمياطي ، ولد هذا الأديب بدنجية قرب دمياط في سنة ٨٢٠ ، وتلقى العلم بها وبيعض مدن الصعيد ، وحج في سنة ٨٣٤ ، ثم استقر في دمياط ، وناب في القضاء بها وقال الشعر ، « وأتى بالقصائد الحيدة ، وخمس البردة ، ومدح كثيراً من الرؤساء ، وتكسب في سوق الجوهريين وقتاً » .

١١ - المقامة الدمياطية في وصف الشجر ومحاسنه

للقادري الجوهري الدمياطي

وقد مدح القادري المنصور عثمان بقصيدة جميلة (سماها الروض المطور في مدح الملك المنصور) وقدم لها بمقامة في وصف دمياط سماها : (المقامة الدمياطية في وصف الشجر ومحاسنه السنية) ، والقصيدة والمقامة يضمهما مجلد واحد ولا تزالان مخطوطتين ، ولها — إلى جانب قيمتهما الأدبية — أهمية خاصة ، فهما يرسمان صورة شائقة لدمياط في أواخر القرن التاسع الهجري ، وهذه الصورة في جملتها لا تختلف كثيراً عن الصورة التي رسمها المقرئ في أوائل القرن نفسه .

يصف القادري دمياط فيبالغ في مدحها ، فيقول : « لأنها الجنة الصغرى ،
والمدينة الخضراء ، وريحانة أرواح الشهداء ، وخزانة أرباح السعداء ، رباطها عنوان
المقربين ، وصراطها ميدان طلاب المجاهدين ، وثياب غربتها من لباس المنة ، وتراب
تربتها من غراس الجنة » ، ثم يعدد بعد ذلك ما بها من قبور الأولياء الصالحين ،
كشطا ، وفاتيح الأسمر ، وابن قفل ، وحسن الطويل ، وجمال الدين (٢) ، وعبد الله
الشهيد (٣) ، فيقول : « ونقر عينك من مشاهد شهداء التابعين بنواحيها ، على
أعلى شاطئ البحيرة التي هي من محاسن ضواحيها ، مشهد شهيد المعركة يوم فتوحها
ولى الله شطا ، الذى أمن بسره نغرها من عدو العدو المخدول ، ومن سطا إذا بسطا ،
ويستمطر بها الفتح عند مشهده (أبى) العطا ولى الله فاتح الأسمر ، الذى يغنى سره
فى المهمات المدلهمات إذا اشتد الخطب عن كل أبيض وأسمر ، ومن بنى قفل بعد
فتح ، جأى البرزخ سدها المسدد سديد ، ومشهد بدر حسننا عند مسجد الشهداء
ولى الله حسن الطويل الشهيد ، ومشهد جالها ولى الله جمال الدين ، الذى برحاب
جنته نوى ، ومشهد عبد الله الشهيد ، الذى استغنى فى الجهاد عن دروع الجديد
بدرع النوى ، فما توسل أحد بهؤلاء الأولياء أوزاره ، إلا حقق الله قصده فيما يرجو
من الخيرات ونخف أوزاره » ، ثم يستطرد بعد هذا فيصف بساكنها وما
كانت تغص به من « طلع منصود ، وظل ممدود ، وماء من دوالها مسكوب ،
بأحشاء كل جدول وكوب ، ويشقى الغليل من العليل ، ويكرم به البخيل ، وبها
البرمان من منظوم عقود يسرها الأحمر ، واللجين والعسجد من منشورها الأبيض
والأصفر » ، ولا يكاد ينتهى من هذا الوصف المنشور حتى ينظمه شعراً ، يصف فيه
ما تنيته المدينة من ثمار وأزهار ، كالموز والنخيل والورد والقصب إلخ ثم يعود
إلى وصفه المنشور فيرفع دمياط إلى الدرورة ، لأنه يعتقد أنها « مدينة أشبه شئ فى
وصفها بأزم ذات العباد ، مدينة شداد بن عاد ، التي لم يخلق مثلها فى البلاد » ثم
يعود مرة أخرى فينظم هذا الوصف شعراً ، يقول فيه :

يا حسنها بلداً فى أفق ههنا . كأنها الشمس حسناً ذات أبراج

كأنها القوس في شكل له وتر وبحره الزاخر الرامى بأمواج .
وينتقل بعد هذا إلى هدفه الثاني ، وهو مدح الملك المنصور عثمان المقيم بدمياط :
فيمدحه بقصيدة تائية طويلة ، ديباجتها إشادة بالشجر ومحاسنه ، ومطلعها :
من ثغر دمياط حيتنا الثنيات بلمم ، فلها منا التحيت
والبدر قابل برجها دجى ، فهما والبدر فى الليل أقمار سنات
والبحر عن بره بالماء روى خبرا مسلسلا : نسفات عنبريات
ونختم القادري رسالته الصغيرة بتعليق لطيف شرح فيه أبيات هذه القصيدة
— بيتاً بيتاً — لينين ما فيها من « البديع والمعاني التى تخفى على كثير من شعراء هذا
الزمان » .

١٢ - دمياط في عهد قايتباى

وقد كان مقام المدينة الحديد — كميناء مصر الأولى — دافعاً لسلطين مصر على
العناية الدائمة بدمياط ، وفى مقدمتهم السلطان الأشرف قايتباى ، فقد كان هذا
السلطان من أبرز وأعظم سلاطين المماليك ، وله فى المدن المصرية المختلفة المنشآت
الكثيرة من مساجد ومدارس وحصون وقلاع ، وقد عنى هذا السلطان بدمياط عناية
خاصة فزارها مرتين للإشراف على شؤونها الحربية والعمرانية : زارها فى صفر سنة
٨٧٧ ، ثم زارها ثانية فى جمادى الآخرة سنة ٨٨٠ (أكتوبر ١٤٧٥) ، وكان سفره
إليها وعودته منها بطريق النيل ، فقد خرج فى مائة مركب وفى حاشية كبيرة من أمراء
جيشه ورجال دولته « فلما طلع إلى الثغر لاقاه النائب ، ومد له مدة حافلة ، فأقام
بها أياماً وهو فى أرغد عيش ، وتنزه فى غيطان البلد ، وتوجه إلى مكان يصاد به
السماك البورى ، ونزل فى مركب صغير ، وعابن كيف يصاد البورى » .

وقد أمر قايتباى بإنشاء برج العظيم فى الاسكندرية فى سنة ٨٨٢ ، وتم بناؤه
فى سنة ٨٨٤ ؛ وفى نفس السنة أراد أن يتم تحصين شواطئ مصر الشمالية جميعاً ،

— ٥٤ —

ويبدو أن السلسلة الضخمة التي كانت تمتد من برج دمياط إلى شاطئها قد بطل استعمالها ، ونزعت من مكانها — وإن كنا لانعرف في أى عصر نزعتم — فأرسل قايتباى في هذه السنة أميراً من أمرائه لتجديد هذه السلسلة ، يقول ابن إياس في حوادث هذه السنة : « وفيها في المحرم توجه الأمير يشبك الدوادار إلى ثغر دمياط ، وكان السلطان قد جعله متحدثاً عليها ، فلما توجه إلى هناك أنشأ على فم البحر الملح عند برج الملك الظاهر بيبرس البندقدارى سلسلة من الحديد زنتها نخباً من مائتين وخمسين قنطاراً من الحديد ، وكانت هذه السلسلة قديماً هناك ثم بطل أمرها ، فجددها الأمير يشبك الدوادار في هذه السنة ، وحصل بها النفع لطرده مراكب الفرنج الكبار »

وفي عهد قايتباى بنيت في دمياط أيضاً المدرسة المتبولى — التي لا تزال موجودة حتى الآن — ، بناها قايتباى لولى الله الشيخ إبراهيم المتبولى ، فقد كان من المعتقدين فيه .

١٣ - دمياط تصبح نيابة في أواخر العصر المملوكي

هذه هي دمياط في أوج عظمتها حتى أواخر القرن التاسع الهجرى (١٥ م) ، وقد ارتفعت — لمكانها الجديدة — من ولاية إلى نيابة ، فقد كانت في العصرين الأيوبي والمملوكي الأولى ولاية من ولايات الوجه البحرى ، فقد كان في الوجه البحرى وقتذاك أربع ولايات ، في : منوف ، وأشموم ، ودمياط ، وقطيا ، وكانت كل ولاية يليها وال أمير عشرة ، أى من صغار أمراء الدولة ، وكانت الأقسام الإدارية في الدولة المملوكية إذ ذاك إما ولايات أو نيابات ، والنيابة أعلى مرتبة ، ويتولاها نائب عن السلطان يكون عادة من الأمراء المقدمين أو أمراء المئات ، وهم أكبر الأمراء قدراً ، ولم يكن بمصر نيابات غير نيابة الأسكندرية ، فقد كانت كدمياط ولاية ثم جعلت نيابة في عهد الأشرف شعبان — أى بعد غزوة القبارصة — .

ويبدو أن دمياط جعلت نيابة أيضاً حوالي ذلك الوقت فان توارب مصر تبدأ

فى القرن التاسع فتسمى حاكم دمياط نائباً - لاولياً - ، وتشير إلى نيابة دمياط لا إلى ولاية دمياط ، وفى تاريخ ابن لياس مثلاً ذكر لكثير من النواب الذين حكموا دمياط فى القرن التاسع وفى السنوات الأولى من القرن العاشر الهجرى .

١٤ - دمياط فى عهد قانصوه الغورى

وكان قابتبای آخر سلاطين المماليك العظام ، وكان عهده آخر عهود الازدهار ، وبدأت مصر بعده فى التأخر والإضمحلال ، وأصاب دمياط وموانئ مصر عامة ما أصاب مصر ، فإذا كان عهد الغورى نجيم على هذه الموانئ الخراب ، ووقفت حركة الصادر والوارد بها لعبت الفرنج بشواطئها ، يقر هذه الحقيقة ابن لياس فى تاريخه ، فيقول فى حوادث سنة ٩٢٠ : « وكان فى تلك الأيام ديوان المفرد وديوان الدولة وديوان الخاص فى غاية الانشحات والتعطيل ، فان بندر الاسكندرية خراباً ، ولم تدخل إليه القطائع فى السنة الحالية ، وبندر جدة خراباً بسبب تعب الفرنج على التجار فى بحر الهند ، فلم تدخل المراكب بالبضائع إلى بندر جدة نحو من ستة سنين وكذلك جهة دمياط » ، وقال أيضاً فى حوادث سنة ٩٢٢ : « وكان حسين نائب جدة يأخذ العشر من تجار الهند المثل عشرة أمثال ، فامتنعت التجار من دخول بندر جدة ، وآل أمره إلى الخراب ، وعز وجود الشاشات من مصر والأزر والأنطاع وأخرب البندر ، وكذلك بندر الاسكندرية وبندر دمياط ، فامتنعت تجار الفرنج من الدخول إلى تلك البنادر من كثرة الظلم ، وعز وجود الأصناف التى كانت تجلب من بلاد الفرنج . »



— ٥٦ —

دمياط

في العصر العثماني

وظهر في الأفق حينذاك خطر جديد أخذ يهدد الدولة المملوكية في مصر ، ذلك هو خطر الدولة الإسلامية الفتية الناشئة ، دولة الأتراك العثمانيين ، وفي نفس هذه السنة التي وصف فيها ابن إياس تأخر الأحوال الاقتصادية في موانئ الدولة — ومن بينها دمياط — ، في هذه السنة — وهي سنة ٩٢٢ (١٥١٧) — انقضى الأتراك العثمانيون على مصر وافتتحوها وضموها إلى ملكهم بعد أن قضوا نهائياً على دولة المماليك .

وفي العصر العثماني ازدهرت دمياط بعض الشيء لكونها أقرب الموانئ المصرية إلى آسيا الصغرى ، ولكنها لم تستعد مكانتها الأولى ، وقد عانت دمياط — كما عانت مصر كلها في ذلك العصر — من اضطراب الأحوال وكثرة الفتن ، وقد ظلت دمياط منى للأُمراء الثائرين كما كانت في العصر السابق ، وفي كتب التاريخ شواهد كثيرة تؤيد ما ذكرنا ، نكتفي بذكر واحد منها :

في سنة ١٢١٨ اشتد النزاع بين عثمان بيك البرديسي وبين حاكم مصر التركي خسرو باشا ، وقتل كثير من اتباع الفديقين ، يقول الخبري : « وهجم المصريون (يقصد المماليك أعوان البرديسي) على دمياط ودخلوها . . . ونهبوها ، وأسيروا نساءها ، واغتصوا الأبقار ، وصاروا يبيعونها كالأرقاء ، ونهبوا الخانات والبيوت والوكائل والمراكب » .



دمياط

في عهد الحملة الفرنسية.

وظلت الحال على هذا إلى أن أتت الحملة الفرنسية إلى مصر ، وقد أثبت علماءها في أبحاثهم أن دمياط كانت ثانی مدينة في القطر المصري بعد القاهرة فقد قاموا بإحصاء السكان في مدن القطر الهامة ، وتبين لهم أن عدد السكان بالقاهرة ٢٦٣.٠٠٠ نسمة وأن عدد سكان دمياط ٣٠.٠٠٠ ، وكانت رشيد هي الثالثة وعدد سكانها ١٣.٠٠٠ ، أما الاسكندرية فكان عدد سكانها ٨.٠٠٠ نسمة فقط . ولهذا عنى الفرنسيون بدمياط عناية خاصة ، فأرسلوا إليها بعد الإستيلاء على القاهرة فرقة من الجيش الفرنسي في أوائل اغسطس سنة ١٧٩٨ ، وعين الجنرال (Vial) حاكماً على مدينتي المنصورة ودمياط .

غير أن سكان هاتين المدينتين لم يخضعوا للفرنسيين ، بل قاوموهم مقاومة عنيفة ، وقاموا بثورات خطيرة أقضت مضاجع الفرنسيين وأتعبتهم ، وكانت دمياط وقرى بحيرة المنزلة مقر تلك الثورات ، وكان بطلها ومحركها حسن طوبار زعيم إقليم المنزلة .

وقد حاول فيال حاكم دمياط أن يستميله إليه بكل الوسائل ولكنه لم يفلح وفي الوقت الذي كان حسن طوبار يقود فيه ثورات المنزلة ويحشد أساطيله بالبحيرة لمهاجمة الفرنسيين قامت الثورة في دمياط نفسها في أوائل سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، واشترك فيها أسطول حسن طوبار الذي تحرك في بحيرة المنزلة حتى وصل إلى غيظ النصارى شرقي دمياط ، وتقدم الأهلون ورجال الأسطول — وكانوا جميعاً مسلحين بالبنادق والرماح — نحو دمياط ، وقتلوا الخراس الفرنسيين ، فتقدم فيال بقواته لمقاتلتهم ، ففر بعضهم وركبوا السفن عاثتين ، واتجه فريق آخر إلى قرية الشعراء المحاذرة لدمياط ، واتخذوها معسكراً لهم. وفي نفس الوقت ثار أهالي عزبة البنج بحاميتهم

خريطة دمياط كما رسمها علماء الحملة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر

الفرنسية وقتلوا رجالها ، واستطاع فيال أن يقتحم قرية الشعراء ، ودخلها بجنده فنهبها وأضرموا فيها النار. ولما سمع أهالى عزبة البرج أن الفرنسيين نجحوا فى إخماد ثورة دمياط تركوا قرتهم ورحلوا بأسراتهم فى السفن إلى سواحل سوريا .

وتقدم الفرنسيون بعد هذا إلى المدن والقرى القريبة من دمياط كبيت الخولى والضاهرية والزرقة ، فأخذوا ثوراتها ونهبوها نهباً تاماً ، وقد كتب الجنرال لوجيه فى يومياته يصف المساوىء التى ارتكبها الجنرال فيال عند انتقامه من بيت الخولى والقرى المجاورة ، قال : « فى اليوم الذى عاد فيه الجنود إلى دمياط بعد هذا النهب ، كانت مدينة دمياط أشبه بسوق أو مولد ، باع فيه الجنود الفرنسيون إلى الأروام مائلاته أيديهم من النهب والسلب ، فكانوا يعرضون المواشى والطينور والثيران والبقر والخيل والحمر والغنم والدجاج والأوز . . . وكثيراً من قطع الذهب والفضة التى كانت حلياً للنساء » .

وأرسل نابليون الجنرال دوجا للأشراف على منطقة بحيرة المنزل ، كما أرسل إلى دمياط بعض السفن المسلحة مدداً للقوة العسكرية هناك ، على أن مركز الفرنسيين ظل مزعزعا فى هذه المنطقة ، يؤيد هذا قول الجنرال لوجيه فى يومياته :

« لم تتحسن الحالة كثيراً عما كانت عليه حينما جاء الجنرال دوجا لأول مرة إلى دمياط ، والسلطة الفرنسية مازالت منكورة . فى معظم جهات الدلتا التابعة لهذه المديرية ، وفى دمياط نفسها التى تعتبر من أعظم بلاد القطر المصرى لا يأمن الجندى الفرنسى على حياته إذا هو ذهب إلى حى الوطنيين . والحامية الفرنسية مقبضة فى حى الأروام » .

علم نابليون من تقرير قواده أن منطقة دمياط لن تخضع للفرنسيين إلا إذا قضى على نفوذ حسن طوبار العسكرية فى المنزل ، والمسيطر على بحيرتها بأساطيله ورجاله ، فأرسل قائداً آخر من قواده يسمى (اندريوسى Andreossi) ليشراف على إخضاع هذه المنطقة ، واتصل هذا القائد بقواد الحاميات الفرنسية المقيمة بدمياط وحولها ، ووضع الخطة للاستيلاء على المنزل معقل حسن طوبار ، وقد استطاع الفرنسيون

— ٩٠ —

الدخول إلى المدينة حقاً في أوائل أكتوبر ، ولكن بعد أن خرج منها كل أهلها ، ولم يتركوا بها إلا الشيوخ والنساء ؛ وقد فرح حسن طويا إلى غزة ، وبقي بها إلى أن أعاد به نابليون إلى مصر بعد فشل حملته على سوريا ، وأقام في بلدته ملتزماً السكينة والهدوء ، فقد احتفظ الفرنسيون بأبنه رهينة عندهم في القاهرة ، ليتأكدوا من ولائه وهدوئه ، وقد مات طويار في سنة ١٨٠٠ ، فنشرت جريدة الحملة الرسمية (كورييه دبلجت) خبر وفاته .

وقد عني الفرنسيون بعد إخضاع هذه الثورات بتحسين منطقة دمياط فأنشأوا قلعة بعزة البرج ، وقلعتين على مدخل البوغاز شرقاً وغرباً ، وقد أقاموا هذه القلاع جميعاً على أنقاض الأبراج والقلاع القديمة التي يبدو أنها كانت قد تهدمت وتشتت بنائها في العصر العثماني .



دمياط

في عصر الأسرة المحمدية العلوية

في عصر محمد علي الكبير :

وفي السنين الأولى من عصر محمد علي الكبير حافظت دمياط على مكانتها ، فقد كانت ثاني مدينة في القطر بعد العاصمة - القاهرة - كما كانت ميناء مصر الأولى ، عنها تصدر ، وإليها ترد معظم التجارة الخارجية ، وكان يقوم بها كثير من الخانات والوكائل .

وقد عني بها محمد علي في أوائل عهده عناية خاصة ، ذكر الجبرتي في حوادث سنة ١٢٣١ (١٨١٦) أن أحد أبناء البلد ، واسمه حسين شلبي عجوة ، اخترع آلة لضرب الأرز وتبييضه ، وقدم نموذجاً لها إلى محمد علي ، فأعجب بها ، وأنعم على مخترعها ، وأمره بتركيب مثل هذه الآلة بدمياط وأخرى برشيد ، ويقول الجبرتي : وإن الباشا لما رأى هذه النكتة من حسين شلبي هذا ، قال : إن في أولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف ، وأمر في الحال بإنشاء مدرسة للهندسة في القلعة لتعليم المصريين العلوم الهندسية ، وهي أول مدرسة للهندسة أنشئت في عصر محمد علي ، ثم تلتها مدارس أخرى .

وفي عهد محمد علي أيضاً أنشئت مدرسة للمشاة في دمياط ، وكانت مهنتها إعداد الضباط لسلاح المشاة ، وكانت تضم ٤٠٠ طالب ، كما أنشئ بها مصنع للغزل يشبه المصانع الآلية الكثيرة التي أنشئت في مدن القطر المختلفة وقتذاك ، وفي عهده (١٢٣٣-١٨١٨) جعلت دمياط محافظة .

غير أن محمد علي اتجه في إصلاحاته كلها إلى النقل عن أوروبا ، سواء أكان ذلك في التعليم أو الصناعة أو الجيش والبحرية . . . إلخ ، ولما كانت الإسكندرية

أقرب الموانئ المصرية إلى أوروبا فقد جباها بعطفه ، وبنى فيها القصور لإقامته ، واتخذها مقراً لدار صناعة السفن ، وحفر ترعة المحمودية ؛ ومنذ تم حفر هذه الترعة استعادت الاسكندرية مكانتها القديمة — كميناء مصر الأولى — وساعد على هذا أن البخار استخدم في ذلك الوقت لتسيير السفن ، وحلت السفن البخارية الكبيرة الحجم محل السفن الشراعية ، وميناء دمياط ميناء رملية كثيرة الرواسب لا تستطيع السفن الكبيرة الدخول إليها والرسو بشاطئها .

في عصر عباسى باشا الأول :

بدأت دمياط إذن تفقد مكانتها كميناء مصر الأولى ، وغدت الميناء الثانية بعد الاسكندرية ، ولكنها لم تفقد أهميتها الحربية كثغر من ثغور مصر المطل على البحر الأبيض المتوسط ، ولهذا عني بها عباس باشا الأول العناية كلها ؛ فأنشأ بها طريقاً عسكرياً يمتد من المدينة إلى البوغاز ، وأنشأ عباس الأول بدمياط أيضاً قشلاقاً كبيراً على شاطئ النيل ، ومجموعة من مخازن البارود والمهمات العسكرية كما أنشأ بها مبنى للحجر الصحي ومحلا للجمرك جنوبى هذه القلعة على شاطئ النيل .

في عصر اسماعيل باشا :

وكان عصر اسماعيل العظيم عصر إصلاح مبنى ، وقد نالت دمياط حظها من هذا الإصلاح ، فوصلت السكة الحديدية والتلغراف إلى بر المدينة الغربى (السنانية) وبالقرب من محطة السكة الحديد أنشئت في عصر اسماعيل ثكنات جديدة للجند ، وإلى جانبها أقيم مستشفى عسكري يسع خمسمائة سرير ، وأوصلت أسلاك البرق إلى قلاع البوغاز جميعاً — وخاصة قلعة عزبة البرج — ، وأجريت إصلاحات كثيرة بهذه القلعة ، وعمر جامعها القديم والمنزل القائم وسط مبانيها ، وأنشئت إلى جانب الأبراج القديمة قلاع حصينة جديدة ، وزودت هذه القلاع جميعاً بالمدافع

العظيمة ذات العيار الكبير والمرمى البعيد، وقد وضع تصميمات هذه القلاع أمير اللواء محمد باشا المرعشلى باشمهندس عموم الاستحكامات وقتئذ .
 وفي عهد إسماعيل أيضاً أنشئ عدد من الفئارات على طول الشاطئ الشمالى لمصر، ومن بينها فئار دمياط، ويمتاز على غيره من هذه الفئارات بأن نوره يظهر ويختفى، ويدور دورة كاملة مدتها دقيقة واحدة .
 وفي أواخر سنة ١٢٥٩ (١٨٤٣) - فى عصر إسماعيل - أنشئ مجلس بلدى دمياط.

فى عهد توفيق باشا :

وفى ابريل سنة ١٨٨٠ زار الخديو توفيق باشا دمياط، وبعد هذه الزيارة بقليل قامت الثورة العراقية، وفى إبانها سافر آلأى عبد العال حلمى - أحد أبطال الثورة - إلى دمياط فى اكتوبر سنة ١٨٨١ للإشراف على حمايتها وتحصينها، وقد استقر هذا الآلاى فى ثكنات المدينة .
 ولما دخل الانجليز الاسكندرية وانتصروا فى وقعة التل الكبير، ضعفت الهمم، وبدأ أن المقاومة لم تعد مجدية، ولكن البطل عبد العال حلمى قائد دمياط أبى التسليم فى أول الأمر، وحاول أن يقنع الجند والأهلين أن عرابى لا يزال يقاوم، ودعاهم للقتال، ولكن أنخبار تسليم طابية الجميل وصلت إلى دمياط، فضعفت العزائم، وأرسل الجنرال (وود) فرقة من جيشه إلى دمياط، وأرسل قائدها - وهو فى السنانية - إلى عبد العال حلمى يطلب إليه التسليم، فرفض أيضاً، فعبّر الانجليز النيل إلى دمياط ودخلوا الثكنات وقبضوا على عبد العال، وأرسلوه إلى القاهرة. حيث حوكم مع زعماء الثورة، وحكم عايه بالنفى، فنفى إلى (كولبو) ميناء سيلان، وبها توفى ودفن فى ١٩ مارس سنة ١٨٩١؛ أما آلأى دمياط فقد سرح الانجليز جنوده، وأمروهم بالعودة إلى بلادهم، ثم خربوا ثكنات السنانية ودمياط وهدموها جميعاً بعد أن جردوها من سلاحها تجربداً تاماً، وأتلفوا مدافعها .

كلمة أخيرة

بين الجديد والقديم

هذه هي دمياط حتى أواخر القرن التاسع عشر ، أما دمياط القرن العشرين ، دمياط المعاصرة ، دمياط فؤاد الكبير وفاروق العظيم ، فهي ماثلة بين أعيننا ، وهي لا تزال تخطو نحو الازدهار والمجد خطوات وثيدة ، ولكنها وثيقة ناجحة .

ونحن إن كنا نأمل - مع أهل دمياط - في شيء ، فذلك أن يعنى أولو الأمر بتنفيذ المشروعات الإصلاحية التى تعيد للمدينة سابق مجدها ، وخاصة مشروع الميناء ، ومشروع طريق دمياط بورسعيد ، ومشروع المحارى . . . إلخ . ودمياط فى رأينا أيضاً مدينة صالحة جداً لإنشاء جامعة بها . إن الإسراع بتنفيذ هذه المشروعات يطفر بدمياط طفرة سريعة إلى الأمام .

أما دمياط القديمة فلها علينا أيضاً حقوق ، ومن حقها علينا أن تعنى الجامعات بعمل حفائر علمية بها وبتنيس لتحديد موقع المدينتين ومعالمهما القديمة ، وأن تعنى مصلحة الآثار العربية بالمحافظة على مابقى بالمدينة من وكائل وخانات ومساجد ، فهي جميعاً صورة جميلة لدمياط القديمة ، ومن الأسف أن الدمياطيين أهملوا هذه الناحية إهمالاً تاماً فى السنوات الأخيرة ، فتركوا وزارة الأوقاف تبيع الوكائل القديمة وتهدمها دون أن تستدعى مصلحة الآثار لإبداء رأيها ودراسة هذه المنشآت والمحافظة عليها ، أو تصويرها ودراستها قبل هدمها ، كما تركوا مهندسى البلدية يهدمون منارات المساجد القديمة ومبانيها دون تقدير لأهميتها الأثرية والفنية والتاريخية .



تاريخ المدينة الاقتصادية

التاريخ التجارى

كان يقع على ساحل مصر الشرقى ثغور ثلاثة : دمياط وتينيس والفرما ؛ وكانت دمياط فى العصور القديمة أقل هذه المدن أهمية ، غير أنها جميعاً لعبت دوراً خطيراً فى تاريخ مصر التجارى فى العصور القديمة والوسطى ، وذلك لأن تجارة الشرق الأقصى الوافدة عبر البحر الأحمر كانت تصل إما إلى عيذاب ، ومنها تحمل بطريق القوافل إلى أسوان ، ثم تنحدر فى السفن شمالاً إلى العاصمة عند قمة الدلتا ، ثم إلى دمياط أو الاسكندرية ، وإما أن تصل إلى القلزم (السويس الحالية) حيث تحمل بطريق القوافل إلى الفرما ، أو إلى العاصمة ثم تشحن بطريق النيل إلى دمياط أو الاسكندرية .

وكانت التجارة الواصلة إلى الفرما أو دمياط تصدر إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقية ، وخاصة سوريا وآسيا الصغرى واليونان ؛ وإليهما كانت ترد بضائع هذه الأقطار ، وقلما كانت ترد إلى هاتين المدينتين أو تصدر عنهما سفن غرب أوروبا ، فقد كانت الاسكندرية هى مركز الاتصال التجارى بين مصر وغرب أوروبا ، فهى أقرب إليه من دمياط ، أما تينيس فكانت تصدر عنها إلى الشرق منتجاتها الصناعية وخاصة المنسوجات .

وقد حافظت هذه المدن على مكانتها التجارية فى العصور القديمة ، فلما كان الفتح العربى بدأت دمياط تحتل مكان الصدارة بين هذه المدن الثلاث ، وخاصة أن الفرع البلوزى القديم الذى كان ينتهى عند الفرما أخذ فى الاضمحلال شيئاً فشيئاً ، ثم طمرته الرمال نهائياً فى الوقت الذى اتسع فيه فرع دمياط وأصبح طريق الملاحة بين العاصمة والبحر .

وقد ضمدت دمياط لغارات البيزنطيين والصليبيين عليها ، أما الفرما وتينيس فقد نالت منهما هذه الغارات ، فساعدت على إضعافهما ، وقد نزل الفرنج أخيراً

بالفرما سنة ٥٤٤هـ فنهبوها وأحرقوها ، ثم خربها تخريباً تاماً الوزير شاور في منتصف القرن السادس الهجرى ، وكذلك تنيس تداول على تخريبها البيزنطيون ثم الفرنج ، إلى أن كانت سنة ٦٢٤هـ فأمر الملك الكامل محمد الأيوبي بتخريبها وهدم حصونها ، فرجل أهلها إل دمياط ، وهكذا زالت من الوجود هاتان المدينتان : الأولى في القرن السادس الهجرى والثانية في القرن السابع .

ورثتهما دمياط فغدت الميناء المصرية الوحيدة في الركن الشمالى الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، فنشطت تجارتها وازدهرت ، ثم لم تلبث الحروب الصليبية التى توالى عليها أن أثرت فيها ، وهدمت دمياط القديمة بعد آخر حملة من هذه الحملات على مصر ، ثم انشئت جنوبها مدينة جديدة ظلت تنمو شيئاً فشيئاً ، وذلك لأن موقعها الجغرافى يستلزم قيام مدينة في هذه البقعة رغم قسوة الحروب وأحداثها .

ولما خرب القبارصة الاسكندرية في القرن الثامن الهجرى فقدت أهميتها التجارية وأفادت دمياط من هذا الحادث ونتائجه ، فغدت منذ ذلك الحين ميناء مصر الأولى ، ونشطت تجارتها مع الغرب والشرق معا ، وزادت أهميتها أيضاً بعد الفتح العثمانى لمصر لكونها أقرب إلى مركز الدولة الحاكمة من الاسكندرية ، فأنشئت بها الوكائل وللفنادق والخانات التى كانت آثارها لا تزال قائمة بها حتى عهد قريب جداً .

وظلت دمياط تحتفظ بمكانتها التجارية حتى سنوات الفتح الفرنسى لمصر في أواخر القرون الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، فقد قام علماء الحملة الفرنسية - كما سبق أن ذكرنا - بإحصاء السكان في مدن مصر الكبيرة ، وأثبت هذا الإحصاء أن دمياط كانت ثانياً بمدينة بعد العاصمة - القاهرة - وثليها رشيد ثم الاسكندرية .

واتجه محمد على باشا في إصلاحاته وصلاته التجارية إلى بلدان غرب أوروبا ، ودفعت هذه السياسة إلى العناية بمدينة الاسكندرية ، فاجتذبت تستعيد مكانتها القديمة - وخاصة بعد إنشاء ترعة المحمودية سنة ١٨٢٠ - وبدأت دمياط تضيحل تجارياً

شيثاً فشيئاً ، ثم زاد في اضمحلالها التجارى مع مرور السنين عوامل كثيرة أخرى :
أهمها أن البخار الذى اكتشف مع مولد القرن التاسع عشر استعمل في تسيير السفن ،
ثم اخذت السفن البخارية يكبر حجمها وغطاسها ، وبذلك اتجهت اتجاهها طبيعياً
إلى ميناء الاسكندرية ، وصدفت نهائياً عن ميناء دمياط لأنها ميناء رملية لاتصلح
لاستقبال السفن الكبيرة ، ومدخلها ضحل غير عميق بتأثير الرواسب السنوية التى
يأتى بها النيل ، وتأثير الصخور التى القاها الظاهر بيبرس عند هذا المدخل في القرن
السابع الهجرى (١٣م).

ثم أنشئت قناة السويس وأنشئت معها ميناء جديدة على ساحل البحر الأبيض
المتوسط هى ميناء بورسعيد ، فسلبت هذه الميناء الجديدة ما بقى لدمياط من مجد
تجارى ، وخاصة بعد ما وصلت السكة الحديد بين بورسعيد وداخل القطر ، وفى
سنوات الحرب الكبرى الأولى أنشئت سكة حديد فلسطين ، فتعاونت مع العوامل
السابقة على القضاء نهائياً على مركز دمياط كميناء تجارى يتعامل مع بلدان البحر
الأبيض الشرقية .

تضافرت هذه العوامل جميعاً على القضاء على تجارة دمياط الخارجية ، ولكن
نشاط أهلها الطبيعى الموروث اتجه إلى النهضة بتجارة المدينة الداخلية وصناعاتها
حتى أصبحت من مدن مصر الأولى فى هاتين الناحيتين .

وقد بدأت الحكومة المصرية منذ سنوات تشعر بمبلغ الخسارة التى أصابت دمياط
كميناء تجارى له أهميته ، فأخذت تفكر فى خير الوسائل لحيائها ، وبدأ هذا التفكير
فى عهد الملك المصلح فؤاد الكبير ، فاستدعى عدد من الخبراء الأجانب فى سنة
١٩٢٦ لدراسة الميناء واقتراح خير الحلول لتعميق البوغاز ، وزارت لجنة الخبراء
ميناء دمياط كما زارت كثيراً من الموانئ الأوروبية الشبيهة بدمياط والواقعة عند
مضبات الأنهار ، وقدمت تقريرها النهائى حوالى سنة ١٩٣٠ ، وفيها تقترح :

— العمل عل تعميق البوغاز وبناء رصيفين طويلين داخل البحر لتمر من بينهما
السفن الكبيرة إلى البوغاز .

— أو انشاء ترعة جديدة تخترق البر غربى جنوبى طابية الشيخ يوسف وتنصب فى
لبجر الأبيض المتوسط غربى رأس البر الحالية ، لتكون بمثابة مصب جديد ومدخل
صالح للسفن الكبيرة .

وحوالى نفس الوقت قدم المهندس المصرى الكبير احمد راغب بك مشروعاً
آخر لحفرة ملاحية عبر بحيرة المنزلة ، يقوم على ضفتيها طريقان بصلان بين
دمياط وبور سعيد ، والمشروع عظيم جداً ويحقق الأهداف المطلوبة من إحياء ميناء
دمياط وربطها بالعالم الخارجى وبداخل القطر ، وقد فصل راغب بك الحديث عن
مشروعه ومزاياه فى كتاب ضخيم مزود بالخرط والاحصاءات والصور الإيضاحية
أصدرته جمعية المهندسين الملكية .

ومع هذا كله فإن الحكومة لم تأخذ باقتراحى الخبراء ولا باقتراح راغب بك ،
وأنشأت طريقاً برياً يصل بين بورسعيد ودمياط ، وعمر فى معظمه بالحجر المتناثرة فى
بحيرة المنزلة ، وقد أثبتت الحوادث والسنون عيوب هذا الطريق : وأنه لم يحقق
الأغراض التى أنشئ من أجلها ، فعسى أن تغنى الحكومة من جديد باعادة التفكير
فى مشروع راغب بك والعمل على تنفيذه ، فهو فى نظرنا خير المشروعات التى قدمت
حتى اليوم لإحياء ميناء دمياط وإعادةها إلى سابق مجدها التجارى الخارجى .

التاريخ الصناعى

وقد اشتهرت دمياط فى كل العصور بأنها كانت مدينة صناعية هامة ، وامتازت
خاصة بصناعة النسيج ، والتصوص التى وصلتنا عن ازدهار هذه الصناعة فى دمياط
وما جاورها ترجع فى معظمها إلى العصر العربى ، غير أننا نستطيع أن نقول واثقين
أن دمياط ومنطقتها اشتهرت بصناعة النسيج منذ عهد الفراعنة : وأن هذه الصناعة
كانت قائمة بها فى العصرين اليونانى والرومانى ، وما ازدهارها فى العصر العربى إلا استمرار
وتقدم لما كانت عليه فى العصور السابقة ، ودليلنا فى هذا أن منطقة دمياط من أصلح
المناطق لقيام صناعة النسيج ، فهذه الصناعة تحتاج إلى جو معتدل وافر الرطوبة ،

— ٧٠ —

وهي غالباً تقوم في المدن المجاورة للمجاري المائية ، لحاجة هذه الصناعة للماء ، ولأن هذه المجاري المائية تكون عادة وسيلة سهلة ورخيصة لنقل منتجات مصانع النسيج إلى مختلف الأسواق ، وهذه الشروط جميعاً كانت تتوفر في دمياط والمنطقة المحيطة بها منذ أقدم العصور.

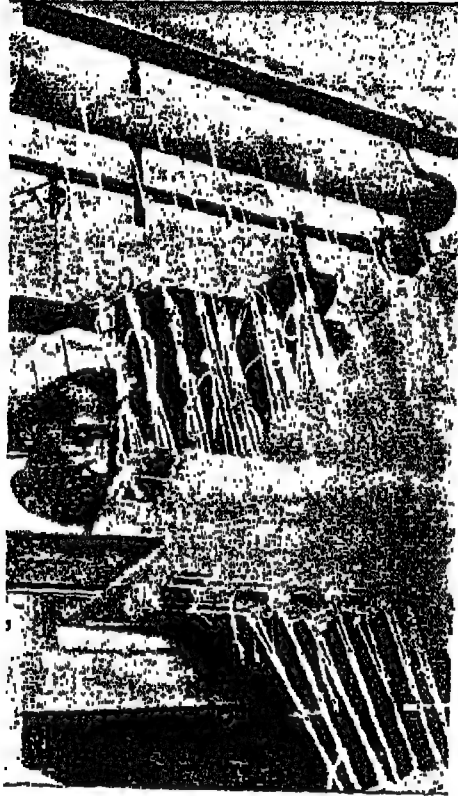
ويؤكد زائنا أيضاً أن معظم المؤرخين العرب يشيرون إلى أن القاطنين بهذه الصناعة في دمياط والمدن المحيطة بها في العصر العربي الأول كانوا في معظمهم من الأقباط سكان البلاد الأصليين ، فهم كانوا أصحاب هذه الصناعة المهرة فيها ، ثم ظلوا القاطنين عليها بعد الفتح العربي بقرون .

وقد ساعد على قيام صناعة المنسوجات في منطقة دمياط قرب المادة الخام وفرتها — وهي الكتان — فقد كانت منسوجات هذه المنطقة كلها من الكتان ، إلا أن يدخل في نسجها خيوط من الحرير أو الذهب أو الصوف ، والكتان كان يزرع بوفرة — في تلك العصور — في أراضي شرق الدلتا أو الفيوم .

ونمت هذه الصناعة وازدهرت ازدهاراً عظيماً في العصر العربي في مدينة دمياط والمدن المحيطة بها في بحيرة المنزلة وحولها ، وخاصة : شطا وتينيس وديبق وتونة وبورة ودميرة . وكانت كل مدينة من هذه المدن تختص بإنتاج نوع بعينه من المنسوجات ، فدمياط تنتج المنسوجات البيضاء وحدها ، وتينيس تنتج المنسوجات الملونة بألوانها المختلفة ، وديبق امتازت بالمنسوجات الصفيفة المتينة . . وهكذا .

ولهذا نسب كل نوع من هذه الأقمشة إلى المدينة التي تنتجها ، وشهر بها ، فنسمع في كتب المؤرخين عن : القماش الديبق والدمياطى ، والثياب الشطوية . . إلخ . وإن لم يتبع هذا من أن بعض هذه المدن كانت تصنع الثياب المشهورة بصنعها البعض الآخر .

هذه الحقائق كلها يرددها المؤرخون والرحالة من العرب وغير العرب منذ القرن الثاني للهجرة . فابن حوقل — وهو من جغرافى القرن الرابع — يقول : « تينيس ودمياط . . : وهنما يتخذ رقيق الديبق والشرب والمصبغات من الخلل السقية التي ليس



صناعة النسيج ، صناعة قديمة قدم المدينة نفسها

في جميع الأرض ما يدانيها في الحسن والقيمة . . . وضياعها شطا ودبق ودميرة وتونة يوما قاربها من تلك الجزائر ، يعمل بها الرفيع من هذه الأجناس ، ثم نص على أن نسج تنيس ودمياط كان يفوق نسج هذه المدن والقرى جميعاً ، فقال : « وليس ذلك بمقارب للتنيسي والدميلطي » .

ووصف المقدسي — وهو من جغرافي نفس القرن — تنيس وصفاً جميلاً يدل على عظم مكانتها في ذلك العصر ، قال : « تنيس . . . مدينة وأى مدينة ، هي بغداد الصغرى ، وجبل الذهب ، ومنتجر الشرق والغرب ، أسواق ظريفة ، وأسماك رخيصة ، وبلد مقصود ، ونعم ظاهرة ، وساحل نزيه ، وجامع نفيس ، وقصور شاهقة ، ومدينة مفيدة رفيعة ، إلا أنها في جزيرة ضيقة ، والبحر عليها كحلقة ملولة قلدة ، والماء في صهاريج مغلقة ، أكثر أهلها قبط . . . وبها يعمل الثياب والأردية الملونة » وترك المقدسي تنيس إلى دمياط ، فرآها تفضل أختها في كثير ، فقال مقارناً : « دمياط . . . تسير في هذه البحيرة (بحيرة تنيس) يوماً وليلة . . . إلى مدينة أخرى ، هي أطيب وأرحب ، وأوسع وأفسح وأحزب ، وأكثر فواكه ، وأحسن بناء ، وأوسع ماء ، وأحلى صناعاً ، وأرفع بزاً ، وأنظف عملاً ، وأجود حمامات وأوثق جدارات ، وأقل أذايات من تنيس ، عليها حصن من الحجارة ، كثيرة الأبواب » .

ولسنا نعرف بالتحديد عدد مصانع النسيج في دمياط في القرون العربية الأولى ؛ ولكن المسعودي ذكر أن تنيس كان بها نحو خمسة آلاف منسج ، فإذا تذكرنا قول المقدسي إن دمياط كانت أوسع من تنيس وأفسح ، وأحلى صناعاً وأرفع بزاً ، استطعنا أن نقول إن دمياط كان بها في نفس الوقت نحو ستة آلاف منسج على أقل تقدير .

وكانت هذه المصانع تنتج الأقمشة الشعبية كما كانت تنتج الطرز الملكية مما يلبسه الولاة وأسراهم ، وما يخلعه هؤلاء الولاة على الأمراء ورجال الدولة ، أو مما يهدى إلى الخليفة والسفراء والملوك .

واختصت دمياط والمدين المحيطة بها منذ أوائل العصر العربي بنسيج كشوة الكعبة ، ومع أن مصر كانت ولاية تابعة للخلافة العباسية ، فإن الخلقاء العباسيين كانوا يأمرهم بصناعة الكسوة التي يرسلونها إلى الكعبة في مصانع دمياط ومدنها ، ولم تكن مدينة من هذه المدن تستأثر وحدها بصناعة الكسوة ، بل كانت جميعا تتبادل هذا الشرف ، فهي مرة تنسج في شطا ، ومرة أخرى في تنيس أو تونة أو دمياط . . . إلخ

وكانت دمياط — كما ذكرنا — تنسج المنسوجات البيضاء وحدها ، كما كانت تنيس تصنع المنسوجات الملونة ، وكان ينسج في دمياط وتنيس نوع من الثياب الدقيقة الرقيقة يسمى البدنة ، يباع الثوب منه — إذا نسج من الكتان وحده — بمائة دينار ، وإذا نسج من الكتان والذهب بمائتي دينار ، ويقول ابن زولاق : « ويباع الثوب الأبيض بدمياط وليس فيه ذهب ثلاثمائة دينار » .

ويبدو أن دبيق كانت تمتاز علي رصيفتها دمياط وتنيس في أول العصر العربي بحودة نسيجها ومئاته ، ولهذا أطلق العراقيون في ذلك العصر على إحدى قرى بغداد اسم (دبيقية) وكانوا يبيعون منسوجاتها على أنها دبيقية لتروج في السوق رواج منسوجات دبيق المصرية المشهورة بالحودة والمئاته .

روينا أن المسعودي ذكر أن تنيس كان بها خمسة آلاف منسج ، وقد رنا نحن أن مناسج دمياط كانت تزيد على هذا العدد ، فإذا أضفنا إلى هذه وتلك مناسج المدن المحاورة المحيطة بدمياط كتينيس ودبيق وبوردة وتونة وذميرة استطعنا أن نعرف أن إنتاج هذه المنطقة من المنسوجات في ذلك العصر كان إنتاجاً ضخماً يغطي حاجة السكان ويفيض منه قدر كبير يصدر إلى الخارج ، ولست نقول هذا استنتاجاً وإنما يوثقنا فيه أقوال المؤرخين . وكانت أكبر كمية من هذه المنسوجات تصدر إلى العراق مقر الخلافة العباسية . وبلغت منسوجات دمياط شهرة عظيمة في بلاد فارس حتى أن أكبر مدينة فارسية لصناعة النسيج — وهي كازرون — كانت تسمى : (دمياط الأعاجم) وكانت منسوجات دمياط وما حولها تصدر أيضاً إلى جدة ، وقد تحمل منها إلى الشرق

البلقيسي ، فالبلقيسي يروى أن الضريبة التي كانت تؤخذ بثغر جدة «على سبط ثياب الشطوي ثلاث دنائير ، ومن سبط الديبقي ديناران» .

وكانت مصانع النسيج في المدن المصرية في العصر العربي تسمى : (دار الطراز) وكان في كل مدينة من هذه المدن نوعان من هذا الدور : دار طراز الخاصة ، ودار طراز العامة ؛ والراجع أن النوع الأول - وهو دار طراز الخاصة - كان ينتج المنسوجات التي تصنع منها كسوة الكعبة أو ملابس الخلفاء والوزراء والولاة ونسائهم أو الخلع التي يخلعها هؤلاء جميعاً على القواد والعلماء وكبار رجال الدولة أما النوع الثاني - وهو دار طراز العامة - فكان ينتج المنسوجات التي تباع للشعب أو تصدر للخارج .

وكانت هذه الدور جميعاً ملكاً للحكومة بشرف عليها ، وتعين موظفيها : وتخرج عماها ؛ كما كان يقوم إلى جانب هذه الدور مناسج أهلية يعمل فيها الأهليون لحسابهم - النساء يقومون بالغزل والرجال يقومون بالنسيج - . ولكن الحكومة كانت تشرف أيضاً على هذه المصانع الأهلية ، فكانت تمد النساخين بالمواد الخام ، فلا يستعملون منها إلا ما كاد عليه خاتم السلطان ، أما مصنوعاتهم فما كانوا يستطيعون بيعها إلا عن طريق موظف الحكومة المعين لذلك . أما الأقمشة المعدة للتصدير فكانت تخضع لنظام حكومي دقيق ، كل ذلك للمحافظة على القيمة الصناعية للمنتجات وعلى المستوى الرفيع الذي اكتسبته . وامتازت به منسوجات هذه المنطقة .

وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان أن هذه المصانع الأهلية في دمياط كانت تقوم قبلي المدينة على الخليج الذي كان يمر عبر المدينة ويصب في بحيرة تنيس ، كما ذكر أن هذه المصانع كانت تسمى «بالمعامل» قال : «ومن ظرف أمر دمياط أنه في قبلها على الخليج مستعمل فيه غرفة تعرف بالمعامل يستأجرها الخاكة لعمل الشيايب البشرب ، فلا تكاد تنجب إلا بها ، فإن عمل بها ثوب وبق منه شبر ، وينقل

إلى غير هذه المعامل ، علم بذلك السمسار المبتاع للثوب فينتقص من ثمنه لاختلاف جوهر الثوب عليه.

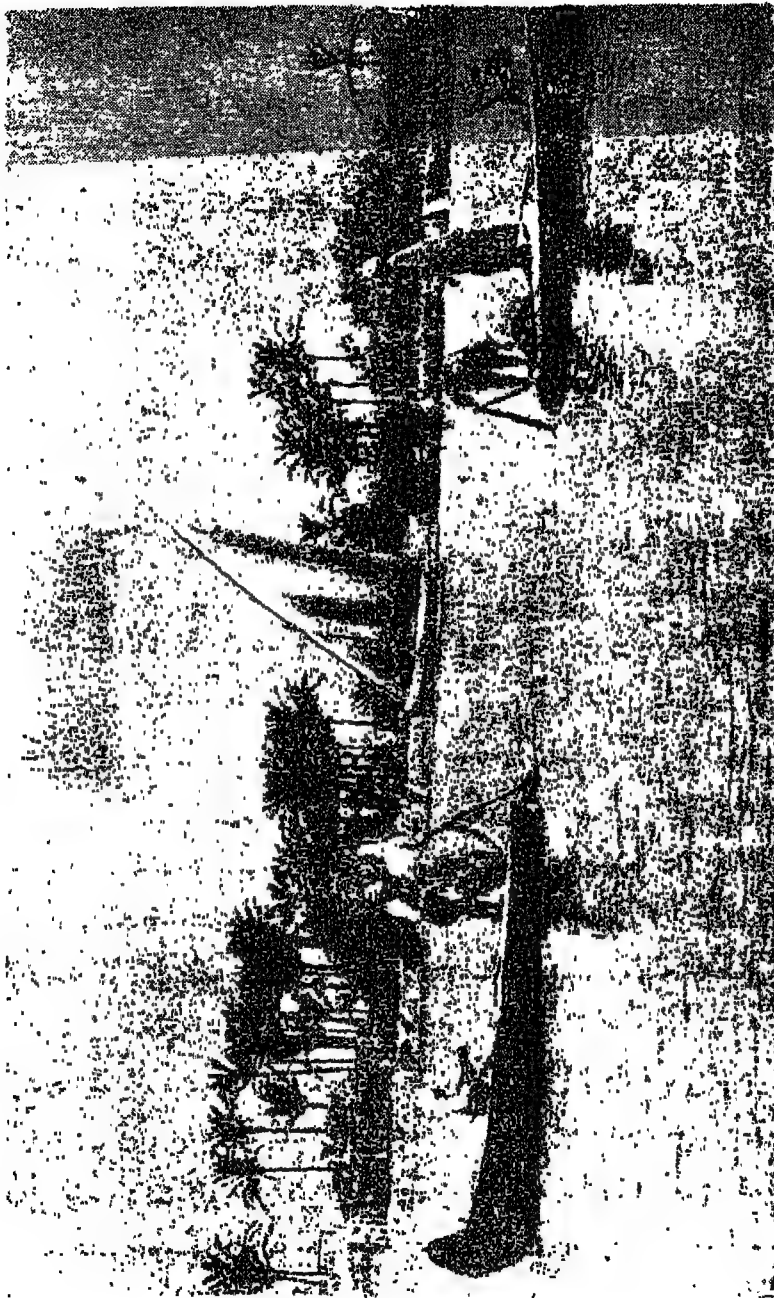
وعندما استقل للفلسطينيون بمصر عنوا عناية خاصة بصناعة النسيج وبدور الطراز، فقد امتازت الحياة في عصرهم بالبندخ، والتزف،، وسن خلفاؤهم تقاليد خاصة للاحتفال بالمواسم والأعياد،، وكانوا يسبقون في هذه المناسبات الهدايا والخلع من منسوجات دمياط وتيس وديبي على وزرائهم وكبار رجال دولتهم.

وظل الحال على هذا في العصر الأيوبي، وإن كانت الحروب الصليبية التي توالى على دمياط قد أثرت في نشاط هذه الصناعة، وفي نهاية هذه الدولة هدمت دمياط فهدمت بتهديمها مصانع النسيج بطبيعة الحال.

ولكن الموقع الجغرافي كما ذكرنا يساعد على قيام هذه الصناعة في هذه البقعة ولهذا لم تلبث أن قلمت صناعة النسيج ثانية في دمياط الجديدة، ولكنها لم تستطع أن تستعيد سابق مجدها، أما تيس فقد هدمت بمصانعها ومبانيها في عهد الملك الكامل محمد الأيوبي.

وظلت دمياط تشتهر أيضاً بصناعة النسيج بطول العصرين المملوكي والعثماني، وهذا يفسر لم أنشأ محمد نجلى بها مصنعاً آلياً جديداً لصناعة الغزل ومصانع النسيج الأهلية المنتشرة في دمياط حتى اليوم هي الأثر الباقي بلجد هذه الصناعة والمنحدر مع المدينة من أقدم العصور، ولكن يبدو أن دمياط في هذه العصور المتأخرة انجذبت إلى نسج الجريز وخاصة بعد انتشاره من الصين في أنحاء العالم وبعد أن كثرت إنتاجه بالشام ذات المصنعات التجارية الدائمة مع دمياط. وقد انتهى الأمر كما نرى اليوم إلى قيام مصانع ينك مصر الجديدة التابعة لشركة مصر لنسج الحرير.

وقد كانت تقوم في دمياط في العصور القديمة صناعات أخرى غير النسيج أهمها عصر السمسر وصناعة الأكياب، وصيد الأسماك والطيور، هذا عدا الصناعات المنزلية المختلفة كالنجارة والحداة والصناعات الجلدية . . الخ.



صيد السمك بشواطئ ديباط -

— ٧٧ —

وقد اتجه سكان دمياط أخيراً — بعد القضاء على تجارة المدينة الخارجية — إلى العناية بهذه الصناعات حتى عموها وأتقنوها وبزوا فيها الصناعات الأوربيين ، فغدت دمياط أهم مدن القطر جميعاً في إنتاج الأثاث والأحذية والجبين ، وكان لوفرة إنتاجها في هذه الصناعات جميعاً أثر كبير في إنقاص كميات الوارد منها إلى المملكة المصرية ، بل إن مصر تصدر الآن كميات كبيرة مما تنتجه دمياط من هذه السلع إلى الخارج .

وإن ننسى لآننسى أخيراً صناعة ضرب الأرز ، فهي صناعة قديمة بدمياط وقد ساعد على وجودها صلاحية الأراضي المجاورة للمدينة لإنتاج هذا النبات وقد كان الأرز دائماً من أهم صادرات دمياط إلى الخارج .

• • •

وبعد فهذه صورة سريعة لتاريخ دمياط من أقدم العصور حتى الآن — سياسياً واقتصادياً — ، أرجو أن أكون قد وفقت في تقديمها وإيضاحها ، كما أرجو أن يوفقني الله سبحانه وتعالى إلى استكمال ألوانها وإبرازها للناس أتم وأوفى وأوضح مما هي عليه هنا في فرصة قريبة إن شاء الله .



— ٢٤ —

الفهرس

الصفحات

٨	دمياط في العصور القديمة
	دمياط في العصر العربي
١٠ - ٩	الفتح العربي
١٢ - ١٠	في عصر الامامة
١٧ - ١٣	في العصر الفاطمي
	في العصر الايوبي
١٩ - ١٧	١ - في عصر صلاح الدين
٢٦ - ٢٠	٢ - في عهد الملك الكامل محمد
٣٩ - ٢٧	٣ - في عهد الملك نجم الدين أيوب
	في العصر المملوكي
٤٠	١ - تخريب دمياط القديمة
٤٠	٢ - قيام دمياط الجديدة
٤١	٣ - في عهد المعز أيبك والمظفر قطز
٤٢ - ٤١	٤ - في عهد الظاهر بيبرس
٤٤ - ٤٣	٥ - في أواخر القرن السابع الهجري (الشيخ فاتح الأسمر)
٤٧ - ٤٤	٦ - في القرن الثامن الهجري (وصف ابن بطوطة)
٤٨ - ٤٧	٧ - في القرن التاسع الهجري
٤٩ - ٤٨	٨ - زيارة المقرئزي ووصفه للمدينة
٥	٩ - دمياط منى السلاطين والامراء
٥١ - ٥٠	١٠ - الملك المنصور عثمان بن جقمق في منقاه بدمياط

— ٧٨ —

- ١١ - المقامة القادرية في وصف الثغر ومحاسنه ٥٣ - ٥١
- ١٢ - في عهد قايتباى ٥٤ - ٥٣
- ١٣ - دمياط نيابة ٥٥ - ٥٤
- ٤١ - في عهد قانصوه الغورى ٥٥
- دمياط في العصر العثماني ٥٦
- دمياط في عهد الحملة للفرنسية ٥٧ - ٦٠
- دمياط في عهد الاسرة المحمدية العلوية
- في عهد محمد على الكبير ٦١ - ٦٢
- في عهد عباس باشا الاول ٦٢
- في عهد اسماعيل باشا ٦٣ - ٦٢
- في عهد نرفس باشا ٦٣
- كلمة أخيرة بين الحديد والقديم ٦٤
- تاريخ المدينة الاقتصادية
- التاريخ التجارى ٦٦ - ٦٩
- التاريخ الصناعى ٦٧ - ٦٩

٢٠٠٠/٢٢٥١	رقم الإيداع
977-5250-75-7	الترقيم الدولي

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧